


ابداعات عالمية

روايــة

غراهام غرين

حفلة القنبلة

الدكـتـور فـيـشـر من جنيف

روايـــــة

ترجمـة بتـول الخضـيري





حفلة القنبلة

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه : غراهام غرين، ترجمة : بتول الخضيري
عنوان المصنف : الدكتور فيشر من جنيف، أو حفلة القنبلة، ط٢
الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب
٢ـ القصة الإنجليزية المترجمة
رقم الإيداع : (١٩٩٧/١١/١٧٤٤)
بيانات النشر : عمان: دار أزمنة .
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ISBN 9957-09-002-X (ردمك)

رقم الإجازة المتسلسل: ١٩٩٠/٩/٥٤٧

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية:
DOCTOR FISCHER OF GENEVA
OR, THE BOMB PARTY.
GRAHAM GREENE.
Penguin books, 1981.

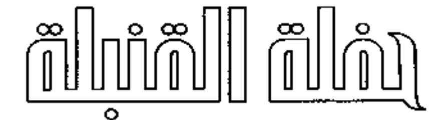
- حفلة القنبلة: غراهام غرين
- الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
- الإصدار الثاني: أزمنة® ١٩٩٩

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح)
الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩

رواية

غراهام غرين



الدكتور فيشر من جنيف

ترجمة

بتول الخضيري



ولد كراهام كرين عام ١٩٠٤ . درس في مدرسة بيركهامستد حيث كان والده يعمل مديرا فيها. عند قدومه من كلية باليول في اوكسفورد حيث قام بنشر كتاب قصائد، عمل لمدة اربع سنوات كمحرر في «التايمز». ثم راجت سمعته بصدور روايته «قطار اسطنبول» التي صنفها على انها «تسلية» وذلك لتمييزها عن بقية اعماله الجادة. في عام ١٩٣٥ قام برحلة عبر ليبيريا فوصفها في «رحلة بلا خرائط». وفي طريق عودته عين ناقد افلام في «السبيكتيتور». وفي عام ١٩٢٦ استقبل في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ووكلت اليه مهمة زيارة المكسيك ليبعث تقارير حول الاضطهاد الديني هناك. ونتج عن هذه الرحلة انه قام بكتابة «طرق خارجة عن القانون» وبعد ذلك كتب «القوة والمجد».

صدرت «صخرة برايتن» في عام ١٩٤٨ . ثم عين محررا ادبيا في «السبيكتيتور» عام ١٩٤٠ . وفي العام التالي تسلم بعض مهام وزارة الخارجية وبُعث الى سيرا ١٩٤١-١٩٤٣ . واعتبرت «قلب القضية» احدى افضل رواياته، وهي رواية كتبت عن غرب افريقيا في فترة ما قبل الحرب. ثم صدرت «نهاية العملية» و «الامريكي الهادىء» التي تتناول احداث فيتنام، و «رجلنا في هافانا» و «قضية محترقة». لقد اخرجت اكثر رواياته سينمائيا مضافا اليه قصتين قصيرتين. وكتبت «الرجل الثالث» كمعالجة سينمائية. في عام ١٩٦٧ ، اصدر الكاتب مجموعة قصص قصيرة بعنوان: «هل لنا ان نستعير زوجك؟». اما اصداراته الاخيرة فهي: «القنصل الفخري» (١٩٧٣)، «قرد اللورد روشيستر» (١٩٧٤) وهي سيرة ذاتية، «امرأة مستحيلة»: مذكرات دوتريسامور من كابري (١٩٧٥)،

«العامل البشري» (١٩٧٨) كما قام باصدار جزئين لسيرته الذاتية: «طريق حياة» (١٩٧١) و«وسائل للهروب» (١٩٨٠).

ان اعمال كراهام كرين تشمل ثلاثين رواية، «تسليات»، مسرحيات، كتب اطفال، كتب رحلات، مجموعات مقالات وقصص قصيرة. وحصل على زمالة شرف عام ١٩٦٦.

توفي في ٤ نيسان / ابريل ١٩٩١



(١)

أظن أنني كنت أضمر للدكتور فيشر حقداً فاق حقدي لأي رجل آخر عرفته مثلما فاق حبي لابنته حب أية امرأة أخرى عرفتها. وما أغرب لقائي بها ثم زواجي منها الذي تم دون تدخل من احد. كانت آنا لويز ووالدها المليونير يقيمان في قصر ابيض ضخم من الطراز القديم عند حافة البحيرة في فرسوا خارج مدينة جنيف بينما كنت أعمل مترجما وكاتب رسائل في مصنع الشوكولاته الزجاجي الهائل في مدينة فيفي. وبذا كان من الممكن أن يفصل بيننا عالم كامل، لا مجرد اقليم صغير. كنت أباشر عملي في الساعة الثامنة والنصف صباحا بينما تكون هي ما تزال نائمة في غرفتها ذات اللونين الابيض والوردي مثل كعكة الزفاف كما شبهتها لي. وعندما أخرج لتناول وجبة غداء سريعة قد تكون هي برداء نومها جالسة أمام مرآتها تصفف شعرها. كنت أقبض من مستخدمي - بعد بيع الحلوى - أجراً قدره ثلاثة آلاف فرنك شهرياً، وهي قيمة تشكل كما أعتقد دخل نصف ساعة فقط عند الدكتور فيشر الذي اخترع قبل سنوات عديدة معجونا للأسنان إسمه (دينتوفيل بوكيه)؛ هذا المعجون الذي كان من المفترض أن يمنع تسوس الأسنان المتسبب عن الإكثار من تناول حلوانا. أما كلمة بوكيه فكانت تشير إلى تعدد العطور حيث عرض الإعلان الأول باقة محببة من الورود، يتبعه سؤال: «ما هي زهرتك المفضلة؟» يتبعه تصوير بطيء لفتيات فاتنات تحمل كل واحدة منهن في فمها وردة تختلف من فتاة لأخرى.

ولكن لم يكن مال الدكتور فيشر سبب بغضي له، فقد كرهته لغروره وإحتقاره للعالم كله، ولقسوته. لم يكن يعرف الحب لأحد ولا حتى لإبنته. كما أنه لم يزعج نفسه بمعارضة زواجنا لكون ازدرائه لي لا يتعدى احتقاره لمن يسمون بأصدقائه الذين

يحتشدون عنده بإيمائة من رأسه فقط. أطلقت عليهم آنا لويز اسم (الضفادع)(١) وذلك لعدم تمكنها من اللغة الانكليزية، فما كانت تريده هو تسميتهم (بالمتملقين)(٢)، ومع خطأ هذه التسمية فقد تبنيتُ بدوري هذا اللقب الذي أطلقته هي عليهم. كانت مجموعة (الضفادع) تضم ممثل أفلام سكيراً يدعى ريشارد دين، ولواء برتبة عالية جداً في القوات المسلحة السويسرية التي تضم الجنرالات في وقت الحروب فقط ـ وإسمه كروغر، ومحامياً عالمياً يدعى السيد كيبس، وخبير الضرائب السيد بيلمونت، وأخيراً امرأة أمريكية بشعر أزرق تدعى مونتغمري. اما الجنرال ـ او هكذا كان يدعوه بعضهم فقد كان متقاعداً، والسيدة مونتغمري كانت أرملة قنوعاً، واستقر الجميع حول مدينة جنيف للأسباب نفسها وهي التهرب من الضرائب في بلادهم أو طمعاً في ظروف إقليمية أفضل. وكان الدكتور فيشر واللواء الوحيدين من بين المجموعة الحاملين للجنسية السويسرية. وعندما تعرفت إليهم كان فيشر الأغنى بالتأكيد. لقد قادهم مثلما يقود الإنسان حماراً، بالسوط في إحدى يديه وقطعة جزر في اليد الأخرى. وهم بدورهم كانوا أغنياء ولكن كم كانوا يستمتعون بذلك الجزر! ولأجل الجزر فقط تحملوا حفلاته البغيضة التي كان يفتتحها دائما بإهانتهم بقوله (ألا تملكون روح الفكاهة؟) وكنت أتخيله وهو يسألهم هكذا في حفلاته الأولى. ثم يختتم الحفلة بمكافأتهم. وفي النهاية تعلموا أن يضحكوا حتى قبل أن تطلق النكتة. وكانوا يعتقدون بأنهم الجماعة المختارة ـ حيث الكثير من الناس في ضواحي جنيف يحسدونهم على صداقتهم للدكتور فيشر. (ولا أعلم لحد هذا اليوم المادة التي جعلته دكتوراً. ربما ابتدعوا له هذا اللقب لتشريفه مثلما أطلقوا على اللواء لقب الجنرال).

كيف قادني أمري إلى حب ابنة الدكتور فيشر؟ مسألة لا تحتاج إلى تفسير، فقد كانت عطوفاً، جميلة، شابة وذكية، ولا أستطيع أن أتذكرها الآن دون ان تترقرق الدموع في عيني، ولكن كم من سر يكمن وراء حبها لي! لقد كانت تصغرني بأكثر من ثلاثين عاماً عندما إلتقينا ولم أكن أملك بالتأكيد ما يجذب فتاة في عمرها إلي. عندما كنت شاباً فقدت إحدى يدي حين إشتغلت إطفائيا أثناء الغارة الهجومية المركزة في إحدى ليالي شهر كانون الأول عام ١٩٤٠ عندما توهجت مدينة لندن بالحريق، فحصلت بعد إنتهاء الحرب على معاش متواضع مكنني من الإستقرار في سويسرا حيث تمكنت من السعي وراء عيشي بمساعدة اللغات التي تعلمتها بفضل والدي.

(١) Toads

(٢) Toadies

كان والدي دبلوماسيا، وبذا قضيت طفولتي في فرنسا وتركيا وباراغواي حيث تعلمت لغات هذه البلدان. وبمصادفة غريبة قتل أبي وأمي في الليلة ذاتها، تلك التي فقدت فيها يدي؛ ودفنا تحت أنقاض بيت في منطقة (وست كنزنغتون) بينها بقيت يدي المقطوعة في مكان ما من شارع (ليدنهال) قريباً من مصرف إنكلترا.

ومثل أي دبلوماسي آخر عاش والدي بلقب فارس، فقد كان يدعى ـ الفارس فريدريك جونز ـ ولقب مبجل كهذا لا يمكن أن يثير سخرية أو استغراب أحد في إنكلترا، بينما كان إسمي المتواضع الذي لا يتعدى كونه السيد . أ. جونز يستحق الإستهزاء في نظر الدكتور فيشر.

لسوء حظي مزج والدي بين الدبلوماسية ودراسة التاريخ الانكلوسكسوني وبذا ـ بعد موافقة والدتي طبعاً ـ قرر أن يطلق علي إسم آلفرد وهو إسم أحد أبطاله (وأعتقد أن والدتي ترددت في تسميتي آلفرد). ولسبب لا يفسر أصبح هذا الإسم المسيحي دنيئاً في نظر عالم الطبقة الوسطى؛ ويقتصر الآن على الطبقة العاملة وغالباً ما يختصر الى (آلف) فقط. ولهذا السبب ربما كان الدكتور فيشر، مخترع دينتوفيل بوكيه، لا يناديني إلا بجونز، حتى بعد أن تزوجت إبنته.

أعود إلى آنا ـ لويز، ما الذي جذبها إلى رجل يناهز الخمسين من العمر؟ ربما كانت تبحث عن أب أكثر عطفاً من الدكتور فيشر، مثلما كنت بدوري منهمكاً دون وعي في بحث مماثل.. عن إبنة اكثر منها زوجة. لقد ماتت زوجتي أثناء عملية ولادة قبل عشرين عاماً وفقدت معها الطفل الذي كان سيولد بنتاً كما أخبرني الأطباء فيما بعد. كنت أحب زوجتي لكنني لم أبلغ المرحلة التي يحب فيها الرجل بكل معنى الكلمة. تعذر علي ذلك ربما لقصر المدة التي قضيناها معاً. أشك إنْ كان الإنسان يستطيع أن يكف عن حب الآخرين، لكنه يستطيع بسهولة أن يتخلص من حب عاشه مرة مثلما يبطل إعجابه بأحد كتاب طفولته بعدما يكبر. تلاشت ذكرى زوجتي بمرور الزمن ولم يكن الإخلاص هو المانع من استمراري في البحث عن زوجة أخرى ـ فقد كان العثور على امرأة تقبلني عشيقاً رغم يدي الإصطناعية البلاستيكية وتقبل براتبي المتواضع شبه معجزة، لذلك لم أتوقع معجزة كهذه أن تتكرر معي. وحين كانت تصبح حاجتي لامرأة ملحة كنت دائماً أستطيع إشباعها بالنقود، حتى في سويسرا، وذلك بعد أن وجدت عملاً في مصنع الحلوى لارفع قليلاً من قيمة معاش التقاعد، مضافاً إليه المبلغ الصغير الذي ورثته عن والدي (كان المبلغ ضئيلاً لكنه في

الأقل لا يخضع للضريبة الإنكليزية بسبب إستثمار والذي لرأس مالها في قروض الحرب).

إلتقيت آنا ـ لويز للمرة الأولى على غداء من شطائر، فقد طلبت وجبة الظهر الإعتيادية وكانت هي يومها ستتناول وجبة خفيفة قبل أن تقوم بزيارة لامرأة ما في مدينة فيفي عملت مربية لها في السابق. تركت مائدتي لأذهب إلى المغاسل حتى يؤتى بالشطائر التي طلبتها، ووضعت صحيفة على المقعد لاحجز المكان، اما آنا ـ لويز فجلست في المقعد المقابل لأنها لم تلحظ الصحيفة. وعندما عدت أظن أنها لاحظت يدي المبتورة ـ رغم القفاز الذي يغطي البديل البلاستيكي ـ وربما بسبب هذه الملاحظة لم تعتذر أو تغير مكانها. (لقد كتبت سابقاً عن طيبتها، فهي لم ترث من أخلاق أبيها شيئا. وأتمنى لو كنت أعرف والدتها).

وصلت طلباتنا في اللحظة نفسها، طلبت شطيرة لحم الخنزير وفنجان قهوة، وطلبت أنا شطيرة جبنة وقدح جعة مما أربك النادلة التي إعتقدت اننا معا.. وهكذا أصبحنا فعلا وفجأة كالصديقين اللذين يلتقيان مصادفة بعد فراق دام سنوات. كان شعرها بلون خشب الماهوغاني الأحمر يعتليه بريق وكأنه ملمع فرنسي، كان طويلاً ومرفوعاً إلى أعلى رأسها ومثبتا بقوقعة تخترقها قصبة؛ على الطريقة الصينية كما أعتقد. وحتى عندما كنت أحييها في الصباح بأدب كنت أتخيل نفسي أسحب تلك القصبة لتسقط القوقعة على الأرض فيتهدل شعرها على ظهرها. كم كانت مختلفة عن باقي الفتيات السويسريات اللواتي ألتقي بهن في الشارع يومياً، بوجوههن الطرية كالزبدة والقشطة، وعيونهن الخالية من التعبير بمسحة من انعدام التجربة. أما هي فقد كان لها من التجربة ما يكفي بمجرد أنها عاشت وحيدة مع الدكتور فيشر بعد موت أمها.

تبادلنا أسماءنا بسرعة قبل أن ننتهي من تناول شطائرنا، وعندما ذكرت لي «فيشر» هتفت قائلاً: «أتقصدين ال (فيشر)؟».

ـ «كيف لي ان اعرف من هو ال (فيشر)؟».

ـ «أقصد الدكتور فيشر صاحب الحفلات». فاومأت بالإيجاب ولاحظت أنني سببت لها بعض الألم.

فقالت: «إنني لا أحضرها». فسارعت مؤكداً لها بأن الإشاعات تبالغ دائما. فأجابتني: «كلا، فتلك الحفلات بغيضة حقاً».

ولتغيير الموضوع ربما، أشارت مباشرة إلى يدي البلاستيكية التي أغطيها دائما بقفاز ليخفي بشاعتها. وأكثر الناس يتظاهرون بأنهم لا يلاحظونها ولكنهم غالبا ما يسترقون نظرة إليها عندما يعتقدون أن انتباهي منصب على أمر آخر. كلمتها عن ليلة الغارة في مدينة لندن وكيف توهجت السماء بالنيران حتى منطقة (وست اند) إلى حد أنه يتسنى للمرء أن يقرأ كتاباً في الساعة الواحدة صباحاً. كانت محطتي بطرف شارع (توتنهام كورت) ولم نستدع للمساعدة في المنطقة الشرقية حتى ساعات الصباح الأولى. قلت لها: «كان ذلك قبل أكثر من ثلاثين عاما، ولكنه ما يزال يبدو وكأنه حدث قبل عدة أشهر فقط». فأردفت قائلة: «كانت تلك سنة زواج ابي، ويا للوليمة التي قدمها بعد المراسيم كما ذكرت لي والدتي، فقد جمع ثروته عن طريق دينتوفيل بوكيه، كما كنا محايدين في ذلك الوقت، والأغنياء لم يخضعوا لنظام تأمين المؤن مثل الباقين؛ فأعتقد أن حفلاته الأولى بدأت منذ تلك الفترة حيث وزع العطر الفرنسي بين النساء المدعوات، وبين الرجال وزع عيدانا ذهبية لتحريك المشروبات الكحولية، وكان يحب أن تجالسه النساء في تلك الأيام. ولم يغادر أحد منهم حتى الساعة الخامسة صباحاً. أنا لا أؤمن بهذا النوع من حفلات الزفاف».

فاستطردت: «تركتنا قاذفات القنابل في الساعة الخامسة والنصف. كنت حينها في المستشفى لكنني سمعت صفارة زوال الإنذار وأنا في سريري». ثم طلبنا المزيد من الشطائر ورفضتُ أن أدفع ثمن طلبها قائلة: «فرصة أخرى» وكأن كلماتها كانت موعداً للقاء ثان في الأقل. وبقيت ذكرى ليلة الغارة الجوية وذكرى غداء الشطائر أقرب وأوضح صورة في ذاكرتي، حتى أوضح من يوم موت آنا ـ لويز.

إنتهينا من تناول الشطائر فراقبتها وهي تختفي عن أنظاري ثم استدرت عائداً إلى مكتبي، حيث تركت لي خمس رسائل بالإسبانية وثلاث بالتركية تتعلق بنوع جديد من شكولاتة الحليب المطعمة بالويسكي. وسيدعي دينتوفيل بوكيه، دون شك، أنه سيمنع أي أذى قد يصيب اللثة.

(٢)

هكذا سارت الامور على مرامنا، لكننا امضينا شهرا من اللقاءات المتفرقة في مدينة فيفي ـ قضيناها في مشاهدة الافلام القديمة في سينما صغيرة في لوزان في منتصف المسافة بين بيتينا ـ قبل ان اكتشف بأننا عرفنا الحب معا وبانها كانت مستعدة «لممارسة هذا الحب» معي ؛ وما اسخف هذه العبارة، فقد نشأ الحب بيننا حتى قبل ايام شطائر اللحم والجبن بفترة طويلة. وكنا في الواقع زوجين من الطراز القديم واقترحت عليها الزواج دون امل كبير في الامسية الاولى ـ وقد كانت امسية يوم احد ـ بعد ان عاشرتها في السرير الذي لم أبال بترتيبه صباح ذلك اليوم لعدم قناعتي بأنها ستوافق على العودة معي بعد موعدنا في المقهى حيث التقينا لاول مرة. وكانت صيغة اقتراحي للزواج هكذا: «أتمنى لو كنا نستطيع ان نتزوج».

فسألتني: «ولماذا لا نكون؟». قالتها وهي مستلقية على ظهرها تحدق في السقف والقوقعة التي يطلق عليها السويسريون اسم (الباريت) ملقاة على الارض وشعرها منثور على الوسادة.

ثم قلت: «الدكتور فيشر». لقد كرهته حتى قبل ان التقي به وفكرة ان أسميه (والدك) كانت بغيضة لدي خاصة بعد ان اكدت لي ان الاشاعات حول حفلاته كانت كلها حقيقة.

واضافت: «لن نحتاج ان نسأله، وعلى كل حال فهو لن يبالي».

ـ «قلت لك كم اكسب، وحسب القيمة السويسرية فهذا لا يكفي لاعالة شخصين».

ـ «سنتدبر امرنا فقد تركت لي والدتي القليل».

- «ثم هنالك مسألة سني فهو يؤهلني لان اكون والدا لك» ؛ قلتها معتقدا ان الامر قد يكون هكذا فعلا فقد كنت بمثابة بديل لاب لا تحبه، وانا مدين للدكتور فيشر بهذا. «حتى بامكاني ان اكون جدا لك لو كنت قد بدأت في الوقت المناسب».

فقالت: «ولم لا؟ انت حبيبي وابي وطفلي وامي، انت العائلة باكملها، العائلة الوحيدة التي اتمناها». ثم اطبقت فمي بفمها لتمنعني من اجابتها ودفعتني الى السرير، وسرى دمها ملاصقا لساقي وبطني، وهكذا تزوجنا بما في الزواج من محاسن ومساوىء، دون الاخذ بموافقة الدكتور فيشر ولا حتى القس. ولم يكن زواجنا شرعيا، لذلك إستحال معه الطلاق فقد اخترنا بعضنا الى الابد.

عادت الى البيت الابيض القديم المحاذي للبحيرة واعدت حقيبة سفر (ما اعجب ما تستطيع المرأة ان تحمله في حقيبة واحدة)، وغادرت دون ان تنبس بكلمة لاحد. ولم نتذكر اباها الا بعد شرائنا خزانة للثياب وعددا من ادوات المطبخ (فلم أكن املك ولا حتى مقلاة) والمزيد من المفارش للسرير. وربما كانت ثلاثة ايام قد مرت عندما قلت لها:

- «سيتساءل اين قد تكونين» - قلت (هو) وليس (والدك).

كانت تصفف شعرها على الطريقة الصينية التي تعجبني وقالت: «ربما لم يلحظ اختفائي».

- «ألا تتناولان الطعام معا؟»

- «غالبا ما يكون في الخارج».

- «من الافضل ان اذهب لمقابلته».

- «لماذا؟»

- «قد يستخدم الشرطة للبحث عنك».

- «لن يتعبوا انفسهم بالبحث، فقد بلغت سن الرشد ونحن لم نرتكب جريمة».

وعلى كل حال لم اكن متأكدا ان كنت لم ارتكب جريمة حقا - فما معنى ان يقوم رجل ذو يد واحدة وقد تجاوز الخمسين من عمره، يقضي يومه بكتابة الرسائل عن الحلويات ويقود فتاة لم تبلغ العشرين من العمر بعد للإقامة معه - ربما لم تكن جريمة بحق القانون بالطبع، ولكنها جريمة في نظر الوالد.

ثم قالت: «ان كنت تريد الذهاب فعلا، فاذهب، ولكن احترس، ارجوك خذ حذرك».

- «أهو خطير لهذا الحد؟»

- «أنه الجحيم بعينه».

(٣)

طلبت اجازة يوم واحد من عملي وقدت سيارتي بمحاذاة البحيرة، لكنني كدت استدير عائدا عندما رأيت مساحة تلك الاراضي؛ اشجار البتولا الفضية والصفصاف المتهدل والمرجة الخضراء الكثيفة الكبيرة الممتدة امام مدخل المبنى ذي الاعمدة حيث ينام كلب صيد ممدد وكأنه شعار الترحيب. وشعرت بأن علي الدخول من الباب المخصص لاصحاب المتاجر. وعندما ضغطت على الجرس فتح الباب رجل يرتدي سترة بيضاء، فسألته:

ـ «الدكتور فيشر»؟

فسألني باسلوب فظ: «الاسم؟». فعرفت انه انكليزي.

ـ «السيد جونز».

قادني الى اعلى سلم يؤدي الى شبه ردهة فيها اريكتان وعدد من الكراسي المريحة وثريا كبيرة. وشغلت احدى تلك الارائك امرأة كهلة ذات شعر ازرق مرتدية ثوبا ازرق والكثير من خواتم الذهب. ثم اختفى الرجل ذو السترة البيضاء.

تبادلنا النظرات، ثم جلت بنظري في انحاء الغرفة باحثا عن مصدر هذا العز كله ـ دينتوفيل بوكيه بالطبع ـ ومن الممكن ان تكون هذه الردهة غرفة انتظار لطبيب اسنان فخم جدا ونكون نحن اثنين من المرضى المنتظرين. وبعد قليل قالت المرأة بانكليزية تشوبها لهجة امريكية ضعيفة: «يا له من رجل مشغول، اليس كذلك؟ فحتى اصدقاؤه عليهم الانتظار. انا السيدة مونتغمري».

فقلت لها: «اسمي جونز».

ـ «لا اذكر انني رأيتك في احدى حفلاته».

ـ «كلا».

ـ «واحيانا تفوتني احداها بالطبع، فلا يمكن ان يكون المرء موجودا دائما، أليس كذلك، ليس دائما».

ـ «أعتقد ذلك».

ـ «انت تعرف ريتشارد دين طبعا».

ـ «لم اتعرف اليه ابدا لكنني قرأت عنه في الصحف».

فاطلقت ضحكة صغيرة وقالت:

ـ «يا لك من شرير، وانا واثقة بانك تعرف الجنرال كروغر».

ـ «كلا».

ـ «ولكن لا بد ان تعرف السيد كيبس». سألتني بلهفة ميالة الى الشك.

ـ «سمعت عنه». واضفت «انه خبير ضرائب اليس كذلك؟»

ـ «لا، لا، هذا السيد بيلمونت، ما اغرب كونك لا تعرف السيد كيبس».

فشعرت بضرورة توضيح امري فقلت لها:

ـ «انا صديق لابنته».

ـ «ولكن السيد كيبس غير متزوج».

ـ «اقصد ابنة الدكتور فيشر».

فقالت: «اوه، لم التق بها فهي منطوية على نفسها ولا تحضر حفلات الدكتور فيشر، يا للاسف، فنحن نتمنى جميعا ان تقوى معرفتنا بها».

عاد الرجل ذو السترة البيضاء وقال بنبرة فيها شيء من الوقاحة: «ان الدكتور فيشر مصاب بحمى خفيفة يا سيدتي ويأسف انه لن يستطيع استقبالك».

ـ «اسأله ان كان في حاجة الى شيء ما ـ سأذهب وآتي به اليه في الحال، ربما قليل من العنب الطيب؟».

ـ «الدكتور لديه عنب طيب».

ـ «كنت اقصد ذلك على سبيل المثال فقط. اسأله ان كان هناك ما استطيع عمله لاجله، اي شيء كان».

رن جرس الباب فذهب الخادم ليفتحه مترفعا عن اجابتها، ثم صعد السلم ثانية حتى الردهة، يتبعه رجل كهل يرتدي بدلة غامقة ومنحنيا بطريقة تجعله يبدو منطبقا على نفسه تقريبا، ابرز رأسه ونظر الينا، فتصورته يشبه الرقم (7) وكانت ذراعه اليسرى منحنية وملاصقة لجانبه فشابهت بذلك الاسلوب الاوروبي لكتابة هذا الرقم.

قالت السيدة مونتغمري: «انه مصاب بالرشح ولن يستقبلنا».

فقال الخادم: «للسيد كيبس موعد معه». ودون ان يعيرنا اي اهتمام، قاد السيد كيبس الى اعلى سلم المرمر. فناديت قائلا: «قل للدكتور فيشر ان معي رسالة من ابنته».

ثم هتفت السيدة مونتغمري: «حمى خفيفة! لا تصدق، فليس هذا بالطريق الى غرفة نومه فهو يؤدي الى مكتبته، وعلى كل حال فانت تعرف المنزل».

ـ «انا هنا لاول مرة».

ـ «هكذا اذا. الان توضح الامر ـ فلست بواحد منا».

ـ «انا اسكن مع ابنته».

فقالت: «حقا! يا له من امر مشوق وصريح كذلك. انها فتاة جميلة كما قيل لي. لم ارها قط، فكما قلت لك انها لا تحب الحفلات»؛ ورفعت يدها لتعدل شعرها فاصدرت اساورها الذهبية اصواتا متنافرة، واضافت: «هنا، تقع جميع المسؤوليات علي، ويجب ان اقوم بدور المضيفة كلما اقام الدكتور فيشر حفلة، فانا المرأة الوحيدة التي تدعى اليها هذه الايام، وهو شرف عظيم بالطبع.. وعلى كل حال، فالجنرال كروغر يقوم باختيار النبيذ اعتياديا... واضافت بغموض: «ان وجد النبيذ». «والجنرال خبير عظيم في هذه المسألة». فسألتها:

ـ «ألا يتوافر النبيذ دائما في حفلاته؟».

نظرت الي بصمت وكأن سؤالي لم يرتبط بالموضوع. ثم لانت قليلا واستأنفت قولها: «ان للدكتور فيشر روح فكاهة عظيمة. واتساءل لماذا لم يدعك الى احدى

حفلاته، ولكن ربما بسبب الظروف الراهنة لن يكون ذلك تصرفا صحيحا، فنحن نكون مجموعة صغيرة جداً.

واضافت: «كلنا نعرف بعضنا جيدا، وكلنا مولعون جدا، مولعون جدا بالدكتور فيشر. ولكن لا بد أنك تعرف السيد بيلمونت في الأقل - السيد هنري بيلمونت؟ وسيحل لك أية مشكلة متعلقة بالضرائب».

فاعترفت لها: «ليس لدي مشاكل ضرائب».

وعندما جلست على الاريكة الثانية تحت الثريا البلورية الضخمة ادركت بأن ما قلته لها وضعني في صنف الذين يتكلمون بلهجة ركيكة او دنيئة، فادارت السيدة مونتغمري وجهها عني في ارتباك واضح.

ورغم تواضع لقب والدي الذي حاز بفضله على مكانة لائقة في (كتاب المشاهير) لمدة من الزمن، شعرت بأني منبوذ من قبل جماعة السيدة مونتغمري. والان مازاد من هذا العار هو نزول الخادم السلم بخطوات سريعة ودون ان يلقي اية نظرة الي؛ اعلن قائلا: «الدكتور فيشر سيستقبل السيد جونز في الساعة الخامسة من يوم الخميس». وابتعد موغلا في المنطقة المجهولة من ذلك البيت الضخم الذي اثار في شعورا غريبا عندما تخيلت بانه كان مؤخرا مسكن آنا ـ لويز.

ـ «اذا السيد جونز، هذا هو اسمك اليس كذلك؟ سرني التعرف اليك، سامكث هنا قليلا لاستفسر من السيد كيبس عن حال صديقنا، يجب ان نحيط الرجل العزيز برعايتنا».

ولم اكتشف الا فيما بعد بانني قد التقيت بالضفدعين الاولين.

(٤)

نصحتني آنا ـ لويز قائلة: «تخل عن هذا الامر، فلست مديناً له بشيء ولست من (الضفادع)، كما انه يعلم جيداً مكاني الآن».

ـ «كل ما يعلمه هو انك مع شخص يدعى جونز».

ـ «ان كان يرغب في معرفة المزيد فبامكانه السؤال عن اسمك ومهنتك ومكان عملك، وكل شيء فأنت أجنبي مقيم واسمك في ملفات الشرطة، فكل ما عليه ان يفعله هو الاستفسار».

ـ «هذه الملفات سرية».

ـ «لا تصدق ان هناك شيئاً سرياً إذا كان الأمر يتعلق بوالدي. وربما يكون أحد رجال الشرطة من (الضفادع)».

ـ «تتكلمين عنه وكأنه سيد السماوات، وان سيادته تكون في الارض كما هي في السماء».

ـ «هذا وصف مطابق له تماماً».

ـ «أنت تثيرين فضولي».

ـ «اوه، ابق على موعدك ان كنت مصراً، ولكن احترس، ارجوك كن حذراً وخاصة ان ابتسم لك».

فمازحتها قائلاً:

ـ «ابتسامة دنتوفيل بوكيه؟»، لأننا في الواقع كنا نستعمل معجون الاسنان هذا، فقد

اوصى به طبيب الأسنان الذي يعالجني، ربما كان هو أيضاً من (الضفادع).

فقالت: «لا تذكر امامه اسم دنتوفيل بوكيه أبداً، فهو لا يحب ان يذكر بالطريقة التي جمع فيها ثروته».

ـ «الا يستعمل المعجون بدوره؟».

ـ «لا، فهو يستعمل نوعاً خاصاً من (منظف الاسنان)(٣) وعلى كل فتجنب موضوع الاسنان وإلا سيعتقد انك تقصده بالذات. انه يستهزىء بالآخرين لكن لا أحد يستهزىء به، فهو يحتكر الاستهزاء لنفسه».

عندما انتهيت من العمل في الساعة الرابعة من يوم الخميس شعرت انني فقدت تلك الثقة التي راودتني وأنا مع آنا ـ لويز. فلم أكن سوى رجل يدعى ألفرد جونز ويكسب ثلاثة آلاف فرنك شهرياً، في الخمسين من عمره ويعمل في شركة الحلوى. تركت سيارتي (الفيات) مع آنا ـ لويز وركبت القطار الى جينيف ثم سرت من المحطة حتى موقف سيارات الاجرة، وعلى مقربة من الموقف كان هناك ما يسميه السويسريون بـ(الحانة الانكليزية) وقد اطلقوا على تلك الحانة ـ كما يتوقع المرء ـ اسم «وينستون تشرشل» مكتوبة على لافتة يصعب تمييزها، فقد كانت حانة من ألواح خشبية ونوافذ زجاجية ملطخة، (ولسبب ما اختيرت ورود بيض وحمر من مدينتي يورك ولانكستر) لتزيينها. أما المشرب فكانت مقابضه من الخزف الصيني؛ وربما هو الشيء الوحيد من الطراز الأصيل، فكل شيء آخر بالكاد تنطبق عليه صفة الاصالة سواء الأريكة الخشبية المنقوشة أو البراميل المزيفة التي استعملت موائد، وحتى الخبز الأبيض المضغوط بدا اصطناعيا. اما ساعات استقبال الزبائن فيسعدني انها لم تكن على الطريقة الانكليزية الاصيلة. وبذا قررت ان أجرع القليل من الشجاعة قبل ان تقلني سيارة الأجرة.

وبما أن ثمن الجعة كان بغلاء الوسكي، فقد طلبت كأس ويسكي. ورغبت في التكلم مع أحد كي ألهي فكري عما يحدث، فوقفت عند المشرب محاولاً اغراء صاحب الحانة بمشاركتي الحديث، سألته: «هل يأتي الكثير من الزبائن الانكليز؟».

أجابني: «لا».

ـ «لماذا، كنت أعتقد ان...».

---

(٣) (Water-Pik)

ـ «لا يملكون مالاً». كان المتكلم سويسرياً وغير متجاوب معي. فشربت كأسا ثانية من الوسكي وخرجت. وسألت سائق سيارة الأجرة:

ـ «أتعرف مسكن الدكتور فيشر في فرسوا؟» كان هذا سويسريا فرنسيا وأكثر تجاوباً من صاحب الحانة.

ـ «أذاهب أنت لمقابلة الدكتور؟».

ـ «نعم».

ـ «عليك ان تحذر».

ـ «لماذا، أهو خطير؟».

ـ «انه غريب الأطوار قليلاً».

ـ «وكيف ذلك؟».

ـ «ألم تسمع بحفلاته؟».

ـ «الاشاعات فقط، ولم يخبرني أحد بالتفاصيل».

ـ «آه، انهم يقسمون على سرية تلك الحفلات».

ـ «من؟».

ـ «الاشخاص الذين يدعوهم».

ـ «اذا، كيف يعلم الناس عن الحفلات؟».

ـ «لا أحد يعلم».

قام الخادم المتغطرس نفسه بفتح الباب لي. ـ «ألديك موعد؟».
ـ «نعم».

ـ «الاسم!».

ـ «جونز».

ـ «لا أعلم ان كان بوسعه مقابلتك».

ـ «قلت لك ان لدي موعداً معه».

ـ «أوه، مواعيد». قالها بنبرة ازدراء «. الكل يقول ان لديه موعداً».

ـ «هيا انصرف وقل له انني هنا».

عبس في وجهي ثم ذهب وتركني على عتبة الباب واقفاً طوال تلك الفترة، غاب عني مدة طويلة وكدت أترك المكان عائداً فقد شككت بأنه يتباطأ عمداً. أخيراً عاد إلي وقال: «سيقابلك». وقادني عبر الردهة ثم الى اعلى سلم المرمر حيث لوحة لامرأة ترتدي ثياباً متهدلة، وبنظرة ملؤها رقة عظيمة كانت تحمل جمجمة في يدها. لست بخبير فن؛ ولكن بدا لي الرسم لوحة اصيلة من القرن السابع عشر وليست بنسخة مزيفة.

ثم أعلن الخادم اسمي: «السيد جونز».

نظرت عبر المائدة فإذا بالدكتور فيشر رجل كباقي الرجال (مما ادهشني بسبب كثرة التلميحات والتحذيرات التي تلقيتها من الآخرين). كان الرجل من عمري تقريباً ذا شارب أحمر وشعر بدأ يفقد بريقه فربما كان يصبغ شاربيه، وكانت هناك تجاعيد تحت عينيه المجهدتين بأجفان ثقيلة، فقد بدا كرجل لم ينم جيداً في الليل. وكان جالساً على الكرسي المريح الوحيد خلف مكتب كبير.

ـ «اجلس يا جونز». قالها دون ان يقف ودون أن يمد يـده لمصافحتي. كـان أمراً بالجلوس أكثر منه دعوة، ومع ذلك فلم يكن معادياً ـ وقد لا أكون بالنسبة اليه إلا واحداً من مستخدميه المعتادين على الوقوف وهو يسدي اليه فضلاً صغيراً. سحبت مقعدي ،وساد الصمت، أخيراً قال لي: «كنت تريد محادثتي؟».

ـ «ظننت ربما انك انت الذي يريد ان يكلمني».

ـ «وكيف ذلك؟». سألني بابتسامة فاترة فتذكرت تحذير آنا ـ لويز.

ـ «لم اكن أعلم انك موجود حتى اتصلت بي في ذلك اليوم. بالمناسبة، ماذا يخفي هذاالقفاز؟ أيخفي تشوهاً؟».

ـ «لقد فقدت يدي».

ـ «أرجو ان لا تكون قد أتيت إلي لاستشارتي فلست (بدكتور طب)».

ـ «أنا أقيم مع ابنتك، ونفكر بالزواج».

- «هذا قرار صعب دائماً، ولكنه قرار يجب ان يتخذ باتفاقكما معاً. هذا الأمر ليس من شأني. هل عاهتك وراثية؟ اعتقد انكما تناقشتما حول هذه النقطة المهمة».

فقلت له: «لقد بترت في غارة لندن الهجومية». ثم أضفت بضعف:

- «رأينا بأنك يجب ان تكون على علم».

- «أمر يدك لا يكاد يهمني».

- «أقصد موضوع زواجنا».

- «كان من الممكن ان تبلغني هذه المعلومات بالكتابة الي فهي طريقة أسهل كما انها كانت ستوفر عليك رحلة الى جنيف»؛ ذكر جنيف وكأنها تبعد عن بيتنا في فيفي بعداً اجتماعياً كبعد موسكو عنا.

- «لا تبدو مهتماً بأمر ابنتك».

- «ربما تعرفها أنت أفضل مني يا جونز، وان كنت تعرفها بالقدر الكافي الذي يجعلك تتزوجها، إذاً فأنت تريحني من مسؤولية كانت مفروضة علي في يوم مضى».

- «ألا تريد عنوانها؟».

- «اعتقد انها تعيش معك أليس كذلك؟».

- «نعم».

- «وأعتقد ان اسمك موجود في دليل الهاتف، أليس كذلك؟».

- «نعم، تحت (فيفي)».

- «إذاً لا داعي لأن تكتب العنوان». ثم ابتسم إلي بواحدة من تلك الابتسامات الخطرة.

- «على كل حال يا جونز، كان ادبا منك انك قمت بزيارتي حتى لو لم يكن ذلك ضرورياً». وبوضوح اراد بذلك انصرافي.

- «مع السلامة دكتور فيشر». وكدت أصل حتى الباب عندما نطق ثانية:

- «يا جونز، ألديك أية معلومات عن أكلة العصيدة؟ أقصد بذلك عصيدة حقيقية وليست تلك الجاهزة باسم (شوفان علامة كواكر). أسألك بالذات لأنك ربما تكون

ويلزي فاسمك ويلزي».

أجبته: «ان العصيدة أكلة اسكتلندية وليست ويلزية».

- «آه، لقد أعطوني معلومات خاطئة. شكراً لك يا جونز، اعتقد ان هذا كل شيء».

عندما عدت للبيت حيتني آنا - لويز بوجه متلهف: «كيف سارت الأمور؟».

- «لم تسر أبداً».

- «هل كان كالحيوان معك؟».

- «لن أقول هذا، كل ما هنالك انه لم يهتم بأمرنا كلياً».

- «هل ابتسم؟».

- «نعم».

- «ألم يدعك الى احدى ولائمه؟».

- «كلا».

- «الحمد لله على ذلك».

- «احمدي الدكتور فيشر على ذلك، أم أن الأمر سيان؟».

(٥)

بعد اسبوع او اسبوعين تزوجنا في دار المختارية بشاهد اتيت به من مكتبي . لم يتصل بنا الدكتور فيشر رغم اننا بعثنا له ببلاغ يحدد تاريخ الزواج. كنا نشعر بالسعادة، واكثر ما اسعدنا هو اننا سنكون بمفردنا، بالطبع ما عدا وجود الشاهد. مارسنا الحب قبل نصف ساعة من ذهابنا الى المختارية. وقالت آنا ـ لويز: «لن تكون هناك كعكة، ولا اشبينات العروس، ولا قس، ولا عائلة ـ انه زواج متكامل، هكذا سيكون مقدسا ويشعر الانسان انه متزوج بالفعل. فالطريقة الاخرى اشبه بالحفلة».

ـ «كاحدى حفلات الدكتور فيشر»؟

ـ «برداءتها تقريبا».

في دار المختارية كان هناك رجل لا اعرفه واقف في نهاية الغرفة. القيت نظرة متوترة خلفي لانني كنت اتوقع مجيء الدكتور فيشر، فرأيت رجلا نحيلا وطويلا جدا، وكانت وجنتاه غائرتين وجفنه الايسر يرتعش حتى خيل الي بأنه رشقني بغمزة، ولكن، عندما رددت له الغمزة حملق فيّ دون اي تعبير او انفعال، فافترضت في البدء ان يكون موظفا ملحقا بالمحافظ. وضع لنا مقعدان امام الطاولة وكان الشاهد السيد اكسكوفييه يحوم باضطراب خلفنا. ثم همست آنا ـ لويز عبارة لم افهمها: «ماذا قلت؟».

ـ «انه واحد من (الضفادع)».

فهتفت بتعجب: «السيد اكسكوفييه»!

ـ «كلا، كلا، وانما الرجل في الخلف». ثم بدأت المراسيم وشعرت باضطراب طوال العملية بسبب وجود ذلك الرجل خلفنا. وتذكرت الطقس الديني الانكليكاني

حيث يسأل الكاهن ان كان عند احد الحاضرين سبب او مانع يدعو الى ايقاف هذا الزواج المقدس فليتقدم به، وبذا لم استطع منع نفسي من التساؤل ان كان الدكتور فيشر قد ارسل (ضفدعا) خصيصا لتنفيذ هذا الغرض. ومع ذلك، فهذا السؤال لم يطرح، ولم يحدث شيء، وسارت الامور بهدوء، وقام المحافظ ـ اعتقد انه كان المحافظ ـ بمصافحتنا متمنيا لنا السعادة ثم اختفى بسرعة عبر باب خلف المائدة.

اقترحت على السيد اكسكوفييه: «الان لنتناول كأسا». كان هذا اقل ما يمكن تقديمه له امتنانا لخدماته الصامتة « لنشرب الشامبانيا في حانة (التيجان الثلاثة)».

ولكن الرجل النحيف مكث واقفاً في مكانه في نهاية الغرفة وهو يغمز لنـا. فسألت كاتب المحكمة ـ هذا ان كان كاتب المحكمة ـ : «هل يوجد طريق آخر للخروج؟» واشرت الى الباب خلف المائدة، لكنه اجاب بالنفي. كان من المحال ان نخرج من ذلك الباب لانه لم يكن لعامة الناس. ولذا لم يكن امامنا الا ان نواجه ذلك (الضفدع). وعندما وصلنا الباب استوقفني الغريب قائلا: «السيد جونز. انا السيد بيلمونت وقد اتيت لك بشيء من الدكتور فيشر». ومد لي ظرفا، فقالت آنا ـ لويز: «لا تأخذه». لقد تصورنا ـ لجهلنا لما فيه ـ انه قد يكون امرا قضائيا.

ـ «سيدة جونز، انه يبعث اطيب تمنياته لك بالسعادة».

فاجابته: «ألست مرشد ضرائبه؟ كم تساوي تمنياته الطيبة هذه؟ وهل علي ان اكشفها لخزينة الدولة؟».

فتحت الظرف الذي احتوى بطاقة مطبوعة فقط وعليها «يسر الدكتور فيشر دعوة ـ وكتب اسم جونز دون ان يسبقه بكلمة السيد ـ لحضور تجمع اصدقائه على عشاء غير رسمي. (وكتب في العاشر من تشرين الاول) في الساعة الثامنة والنصف، ثم ملاحظة (يرجى الرد على الدعوة مسبقا).

سألتْ آنا ـ لويز: «أهي دعوة؟».

ـ «نعم».

ـ «يجب ألا تحضرها».

ـ «سيخيب ذلك ظنه»، قالها السيد بيلمونت واضاف: «انه يأمل بصورة خاصة ان يأتي السيد جونز وينضم الينا، وستكون السيدة مونتغمري حاضرة والسيد كيبس بالطبع ونأمل ان يكون اللواء...».

قالت آنا ـ لويز: «اجتماع الضفادع».

ـ «الضفادع، الضفادع؟ لم اسمع بهذه الكلمة قط. ارجوك، انه يتمنى ان يعرف زوجك الى اصدقائه جميعهم».

ـ «لكنني ألاحظ من البطاقة ان زوجتي غير مدعوة».

ـ «لم تدع اية من زوجاتنا. النساء ممنوعات وقد اصبح هذا قانونا لاجتماعاتنا الصغيرة، ولا اعلم لماذا! فقد كان هناك مرة. . ولكن السيدة مونتغمري هي الاستثناء الوحيد الان. وتستطيع القول انها بحد ذاتها تمثل بنات جنسها». ثم اضاف بلغة دارجة تعيسة «انها من النوع الجيد».

فقلت له: «سابعث له الرد هذا المساء».

ـ «أؤكد لك بانه سيفوتك الكثير اذا لم تحضر، فولائم الدكتور فيشر مسلية جدا، وله روح فكاهة عالية كما انه كريم جدا. نحن نستمتع كثيرا».

شربنا زجاجة الشمبانيا مع السيد اكسكوفييه في حانة (التيجان الثلاثة) ثم عدنا للبيت. كانت الشمبانيا ممتازة ولكن حيويتنا خفت، فقد فرض الدكتور فيشر نزاعا بيننا بعد ان بدأت بالمجادلة باعتبار انني لست ضد الدكتور فيشر، فقد كان بامكانه بكل سهولة ان يعترض على زواجنا او في الاقل يبدي علامات عدم الرضا. وسيكون من الفظاظة ان ارفض بطاقة دعوة بمثابة هدية زواج، بطريقة او باخرى.

ـ «يريدك ان تنضم الى (الضفادع)».

ـ «لكنني لست ضد (الضفادع). . أهم حقا بالسوء الذي تصفينهم به؟ لقد التقيت بثلاثة منهم واعترف بان السيدة مونتغمري لم تثر اعجابي ولكن البقية. . .

ـ «اعتقد بانهم لم يكونوا جميعا من (الضفادع)، ولكنه رشاهم وافسدهم».

ـ «لا يمكن إفساد انسان الا اذا كان قابلاً للفساد».

ـ «وكيف تعلم انك غير قابل للفساد؟»

ـ «لا اعلم، لذلك ستكون هذه فرصة جيدة لان اكتشف امري».

ـ «اذا ستدعه يقودك الى مرتفع ليريك من هناك ممالك العالم كلها».

ـ «لست المسيح، وليس هو الشيطان، اعتقد اننا اتفقنا بانه سيد السماوات، ومع ذلك فاعتقد ان هذا اللعين يشبه الشيطان جدا».

ـ «اوه، حسنا، اذهب ولتلعن انت ايضا».

كان الشجار كخشب النار الضامر؛ يتضاءل احيانا، واحيانا اخرى تضيء مجموعة من الشرر كسرة خشب متفحمة فتتوهج فجأة السنة اللهب. ولم ينته النزاع حتى شرعت هي تبكي على وسادتها واستسلمت بدوري. قلت: «انت على حق، لست مدينا له بشيء، هذا الزائف، لن اذهب، أعدك بأنني لن اذهب». قالت: «لا، انت على صواب وانا المخطئة. انا اعلم بانك لست بـ (ضفدع) ولكنك لن تتأكد من ذلك حتى تحضر تلك الحفلة اللعينة. ارجوك اذهب، لست غاضبة، اؤكد لك واريدك ان تذهب». ثم اضافت: «وعلى كل حال فهو والدي، وربما لا يكون بهذه المرارة، وقد يستثنيك دون الاخرين، لكنه لم يستثن والدتي».

تعبنا من الجدال ونامت بين ذراعي دون ممارسة الحب فنمت بدوري بعدها. وفي اليوم التالي بعثت جوابي الرسمي ردا على الدعوة: «يسر السيد جونز قبول دعوة الدكتور فيشر الطيبة»... وقلت لنفسي: «يا لها من جلبة لا داعي لها». الا انني اكتشفت فيما بعد خطأ تصوري هذا.

(٦)

انتهى الخلاف دون ان يتكرر، وكانت هذه احدى مميزات آنا ـ لويز؛ فهي لم تستعد ابداً جدالاً او قرارا نكون قد اتفقنا عليه. وعلمت انها عندما تزوجتني كانت قد قصدت ذلك الى الابد فعلا. لم تعد ذكر تلك الحفلة نهائيا، وكانت الايام العشرة التي تلت، من اسعد الايام التي قضيتها. فقد كان تغييرا هائلا بالنسبة لي ان اعود من المكتب في الليل الى شقة لم تكن خالية حيث صوت الانسانة التي احبها.

وفي مناسبة واحدة فقط بدت لي السعادة مهددة قليلا، وذلك عندما اضطررت ان اذهب الى جينيف لمقابلة حلواني من مدريد لعقد صفقة ما للشركة. دعاني الحلواني لتناول غذاء ممتاز في مطعم (الشاطيء الجميل)، لكنني لم أستمتع تماما بتلك الوجبة لانه ظل يتكلم طوال المدة عن الحلوى ابتداءا من المقبلات مستمرا الى ما بعد ذلك. واذكر انه اختار شراب (الكوكتيل) بحبات الشوكولاتة المنثورة عليه. قد يعتقد القاريء ان موضوع الشوكولاتة محدود، لكنه لم يكن كذلك بالتاكيد، ليس في نظر حلواني ذي افكار ثائرة جديدة. ثم ختم وجبته بحلوى من زبدة مخفوقة تعرضت لانتقاداته القاسية لانها لم تحتوي على قصاصات من قشور البرتقال. وعندما خرجت شعرت بامتعاض وكانني قد جربت كل انواع الحلوى التي قامت شركتي بتصنيعها منذ ان أسست.

كان يوما رطبا من ايام ايلول، وسرت مبتعدا نحو المكان الذي تركت فيه سيارتي محاولا تجنب طراوة الهواء ورطوبة البحيرة، وظل طعم الشوكولاتة متكتلا في فمي. ثم سمعت صوت امراة تناديني:

ـ «السيد سميث، انت الرجل الذي احتاج اليه بالضبط».

استدرت نحوها فاذا بها السيدة مونتغمري واقفة على عتبة باب احد المحلات السويسرية الراقية. فاجبتها آليا: «جونز».

- «اوه، متأسفة جدا، العتب على الذاكرة، لا اعلم لماذا اعتقدت انك السيد سميث. ولكن، الامر عندي سواء فما ابتغيه هو رجل، مجرد رجل، هذا كل ما في الامر».

فقلت لها مازحا: «أهذه مصارحة؟». لكنها لم تفهم النكتة، واستمرت قائلة:

- «اريدك ان تدخل الى هنا، وتشير الى اربعة اشياء تتمنى ان تمتلكها - هذا ان كان تبذيرك يصل الى حد يدفعك الى شرائها».

سحبتني من ذراعي الى داخل المحل، واثار مشهد سلع الترف تلك اشمئزازي مثلما فعلت بي حلوى الغداء، وبدا لي كل شيء مصنوعا من ذهب (ذي ثمانية عشر قيراطا) او من البلاتين مع انهم عرضوا بعض الاشياء من الفضة وجلد الخنزير وذلك للزبائن الاقل ثراء. وتذكرت الاشاعات حول حفلات الدكتور فيشر وخيل الي انني توصلت الى ما كانت تبغيه السيدة مونتغمري. تناولت علبة حمراء من جلد الماعز المراكشي بداخلها قاطعة سيكار ذهبية، وسألتني: «الا ترغب ان تكون هذه لك؟».

لو رغبت بها لكانت ستكلفني راتب شهر تقريبا، فاجبتها: «انا لا ادخن». ثم اضفت: «يجب ألا تختاري هذا. ألم يهدها في حفلة زواجه؟ لا اظن ان الدكتور يحب التكرار».

- «أمتأكد انت؟».

- «كلا. وعلى كل حال فاعتقد ان الهدايا يومها كانت عيدانا ذهبية لتحريك المشروبات».

فقالت بنبرة تشوبها خيبة امل: «لكنك لست متاكدا». واعادت قاطعة السيكار الى مكانها. «انت لا تعلم صعوبة أن يبحث المرء عن شيء يرضي الجميع، خاصة الرجال».

فسألتها: «لماذا لا يعطيهم صكوكا؟(*)».

(*) Cheques - شيكات

- «لا يمكن اعطاء الناس صكوكا؛ فهذا مهين لهم».

- «ان كانت قيمة الصك كبيرة فستكون كافية كي لا يشعروا بالاهانة».

لاحظت ردود فعلها على ما كنت اقوله لها، وتأكد لي ذلك مما حدث فيما بعد حيث رددت اقوالي عند الدكتور فيشر. قالت: «هذا لا ينفع، لا ينفع ابدا. تخيل منظر الجنرال وهو ياخذ صكا، ستبدو كالرشوة».

- «ألم يقبل الجنرالات الرشاوي في السابق؟ على كل حال لا يمكن ان يكون جنرالا ان كان سويسريا، ربما يكون لواء فقط».

- «ولكن، اعطاء السيد كيبس صكا فكرة لا تعقل». ثم قالت بعد طول تفكير: «يجب ان لا تخبر احدا بما ساقوله لك الان: ان السيد كيبس يملك هذا المحل». «ما رأيك بساعة ذهبية علامة كوارتز؟ او ربما ستكون البلاتينية افضل. ولكن من المحتمل انهم يملكون ساعة كهذه».

- «بوسعهم بيع الساعة الجديدة مرة اخرى».

- «انا متاكدة ان احداً منهم لن يحلم حتى ببيع هديته، وبالأخص لانها من الدكتور فيشر».

إذاً تحققت تخميناتي وانكشف السر. ورأيتها تغص وكأنها تحاول بلع ذلك السر؛ ثم تناولت اطار صور مصنوعا من جلد الخنزير، وقد وضعت ادارة المحل فيه صورة فوتوغرافية للنجم السينمائي ريشارد دين وكأن الذين يشترون بضائعهم من هناك ينقصهم الذكاء الكافي لمعرفة استعمالات اطار جلد الخنزير للصور الفوتوغرافية، فحتى انا كنت قد قرأت ما يكفي من الصحف لأميز واعرف هذا الوجه الشاب ـ الكهل الوسيم وتلك الابتسامة الثملة. ثم سألتها: «ما رأيك بهذه؟».

فقالت شاكية: «اوه، انت رجل مستحيل». وعلى كل حال تبين فيما بعد انها قد رددت حتى ذلك الاقتراح الهازيء عند الدكتور فيشر. واظن انها سرت لانصرافي لانني لم اكن ذا نفع لها.

(٧)

«هل تكرهين اباك؟» سألت آنا-لويز هذا السؤال بعد ان أخبرتها بأحداث ذلك اليوم كلها، ابتداء من تناولي الغداء مع الحلواني الاسباني.

قالت: «لا أحبه» ثم اضافت: «نعم أظن أنني أكرهه».

- «لماذا؟»
- «لأنه السبب في تعاسة أمي».
- «كيف»؟
- «بغروره، غروره الشيطاني». وأخبرتني كيف أن أمها كانت تحب الموسيقى التي كرهها والدها - ولم أشك في وجود ذلك الكره الذي تكلمت عنه. ولم تعرف لتصرفه ذلك تحليلا؛ ولكن بدا وكأن الموسيقى كانت تسخر منه وذلك لانه فشل في فهم هذا الفن، يا للحماقة؛ حماقة؟ أيكون الرجل الذي اخترع دينتوفيل بوكيه وأوجد ثروة من ملايين الفرنكات أحمق؟ وهكذا، كانت امها تنسل خلسة وتذهب الى الحفلات الموسيقية بمفردها، وفي احدى تلك الحفلات التقت برجل شاركها حبها للموسيقى. حتى انهما اشتريا إسطوانات ليستمعا اليها في شقته سرا. وعندما تكلم الدكتور فيشر باستهزاء عن (مواء) الآلات الوترية كفت هي عن محاولة مجادلته - وما كان عليها إلا أن تنزل إلى الشارع وتتجه إلى البناء المجاور لمحل الجزارة، تستخدم جهاز الاتصال الداخلي (٤) وتدخل المصعد فيوصلها الى الطابق الثالث حيث تستمع بسعادة إلى موسيقى «هيفتز» لمدة ساعة. لم تكن علاقتهما جنسية، وكانت آنا - لويز متأكدة من هذا الأمر، لذا لم تكن المسألة مسألة وفاء زوجي. كما ان الجنس بين

---

(٤) Parlophone

الدكتور فيشر وزوجته لم يكن متعة لهما، فقد كان كألم الولادة وشعوراً كبيراً بالوحدة بالنسبة لها، بينما كان الدكتور فيشر يبتسم بكل رضا. ولسنوات طويلة كانت تتصنع هي بدورها هذا الرضا. لم يكن من الصعب خداعه فزوجها لم يأبه على كل حال ان كانت قد رضيت أم لا. لذا كان بوسعها أن توفر على نفسها جهد التمثيل. وقد ذكرت لابنتها هذه الحقائق كلها في حالة هيجان هستيري.

اكتشف الدكتور فيشر أفعالها. استجوبها فقالت الحقيقة، لكنه لم يصدق الحقيقة - أو انه ربما صدقها، لكن الأمر عنده كان سواء، أكانت تخونه مع رجل آخر أو تخونه باستماعها الى إسطوانة لـ «هيفتز»؛ إسطوانة تصدر مواء لا يفهمه. كانت تتركه بدخولها منطقة حيث لا يستطيع هو اللحاق بها. لقد أثرت غيرته عليها إلى درجة إعتقادها فعلا أن هناك ما يدعوه الى هذه الغيرة؛ وبذا شعرت أنها مذنبة لسبب ما، رغم أنها لم تكن متأكدة من ذلك. فإعتذرت وتذللت وقالت له كل شيء حتى إسم إسطوانة «هيفتز» التي أمتعتها اكثر من غيرها، ولكنه منذئذ أخذ يمارس معها الجنس بكل كراهية. ولم تستطع شرح ذلك لابنتها، لكنني أستطيع أن أتخيل كيف سار الوضع بينهما - كان يفرض نفسه عليها وكأنه يطعن عدوا، ولم تكن لترضيه ضربة نهائية، فقد كان يريد لها موتا بعد ألف جرح. قال لها أنه سامحها مما زاد من شعورها بالذنب فلماذا يسامحها إن لم تكن مذنبة؟ لكنه قال لها أيضاً بأنه لن ينسى أبداً خيانتها. أية خيانة؟ وبذا كان يوقظها في منتصف الليل ليطعنها بمهمازه مرة أخرى. وعلمت أنه اكتشف إسم صديقها - عاشق الموسيقى المسالم - فذهب إلى مستخدم ذلك الرجل وسلمه خمسين ألف فرنك كي يفصل صديقها من الخدمة دون سندات. وقالت لي: «كان المستخدم هو السيد كيبس»، أما صديقها فلم يكن سوى كاتب غير ذي شأن ولم يكن حاله أفضل من أي شخص عادي آخر يمكن استبداله في أية لحظة بشبيه له. فالصفة الوحيدة التي ميزته هي حبه للموسيقى التي لم يفهمها الدكتور فيشر نهائياً. أما مكسب الرجل القليل فلم يزد إلا من إهانة الدكتور فيشر؛ فلو إختارت زوجته مليونيراً آخر لما تأثر بخيانتها الى هذا الحد - هذا ما اعتقدته والدتها. من المؤكد أنه كان سيمقت المسيح لكونه إبن نجار لولا أن العهد الجديد أثبت بمرور الزمن خطأ الكثير من تلك الادعاءات التجارية.

- «وماذا حصل للرجل»؟

قالت: «لم تعرف والدتي عنه شيئا فقد اختفى بكل بساطة، ثم اختفت هي أيضاً بعد عدة سنوات. أعتقد أنها كانت كالمرأة الإفريقية التي تنذر نفسها للموت.

كلمتني عن حياتها الخاصة مرة واحدة فقط، وقد أخبرتك بما أعلم، حسب ما أتذكر».

- «وأنت، كيف كان يعاملك؟»

- «لم يسيء معاملتي لانني لم أكن موضع اهتمامه. ولكن، أتعلم، كنت أعتقد أن ذلك الكاتب الصغير المستخدم عند السيد كيبس وخز والدي في قلبه ولم يشف والدي من تلك الوخزة حتى الآن. وربما تعلم منذ تلك اللحظة كيف يكره ويبغض الناس، ولذلك جمع (الضفادع) عنده لتقوم بتسليته بعد وفاة والدتي. وكان السيد كيبس بالطبع من أول المدعوين. ولكن، لا يمكن أن يكون وجود السيد كيبس امرا يسعد والدي وذلك لأنه عرض وضعه بطريقة أو أخرى أمام السيد كيبس لذا قام بإهانته مثلما أهان والدتي، لأن السيد كيبس علم بأمره، ثم قام بتعيينه محاميا له ليمنعه من التفوه بأي شيء».

- «لكن، ماذا فعل بالسيد كيبس؟»

- «بالطبع انت لا تعرف كيف يبدو مظهر السيد كيبس؟»

- «بل أعرف، لقد رأيته عندما حاولت أن أقابل والدك للمرة الأولى».

- «أنت تعرف إذن أن جسمه منحن كأنه منطو على نفسه، فهو يشكو من اعوجاج في العمود الفقري».

- «نعم، لقد تخيلت أنه يشبه الرقم 7».

- «لقد استأجر والدي كاتبا مشهورا بقصص الأطفال ورسام (كاريكاتير) ممتازاً، وبتعاونهم قاموا بإصدار مسلسلة هزلية في كتاب بعنوان «مغامرات السيد كيبس في بحثه عن الدولار». واعطاني نسخة منه. لم أكن أعرف أن هناك في الحقيقة رجلاً يدعى السيد كيبس وبالرغم من ذلك فقد وجدت الكتاب مضحكاً وقاسياً جداً. فقد كان السيد كيبس في الكتاب منطوياً على نفسه دائماً، ومستمراً في التقاط النقود التي تقع من الناس على الرصيف. وقد صدر الكتاب في موسم عيد الميلاد، وقد رتب أبي - بثمن طبعاً - عرضا كبيرا له في واجهة كل مكتبة. وإشترط أن يكون العرض بإرتفاع معين كي يتسنى للسيد كيبس المنثني من منتصفه رؤيته إن كان ماراً من ذلك الطريق. إن المحامي، وخاصة المحامي الدولي الذي لا يتعامل بالقضايا المعروفة كالجريمة مثلاً، لا يحقق الشهرة حتى في المدينة التي يقيم فيها، لذا لم يتردد

أحد في عرض هـذا الكتاب إلا مكتبـة واحدة رفضت الأمـر خوفـاً من الطعن والتشهير. وقام والدي بكل سهولة بضمان التكاليف كلها. وراجت شهرة الكتاب ـ هذا يؤكد لي بأن أكثر الأطفال قساة ـ وأعيد طبعه مرات عديدة. كما نشـرت سلسلة هزلية منه في الصحيفة. وأعتقد أن والدي ـ الذي أسعده هذا الأمر جدا ـ قد حقق من جرائه أرباحاً كبيرة».

ـ «والسيد كيبس؟»

ـ «علم بالأمر في إحدى حفلات والدي الأولى، فقد حصل الجميع على هدية صغيرة رائعة سواء من الذهب أو البلاتين موضوعةبجانب صحن الطعام، إلا السيد كيبس الذي حصل على رزمة سمراء كبيرة تحتوي على نسخة من الكتاب مجلدة خصيصاً له بجلد الماعز المراكشي الأحمر. لا بد أنه اهتاج غضباً لكنه تظاهر بالمرح أمـام الضيوف، وعلى كل فلم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً لأن والدي كان يدفع له أتعاب توكيله محامياً عنده. ورغم ان السيد كيبس لم يقم بأي عمل مقابل تلك الأتعاب فإنه سيخسرها لو شب أي نزاع بينهما. ومن يعلم؟ ربما قام هو بنفسه بشراء عدد كبير من تلك النسخ مما أدى إلى نجاح الكتاب. ثم أخبرني والدي عما حدث معتقداً أن القصة مسلية جداً. فسألته: «والسيد كيبس المسكين؟» فأجابني دون أن يذكر السبب الحقيقي بالطبع: «اوه، سأتسلى بهم جميعاً بمرور الزمن». قلت له: «على هذا الحال، ستفقد أصدقاءك جميعهم بمرور الزمن أيضاً». قال: «لا تصدقي هذا، فكل أصدقائي من الأثرياء، والاثرياء هم الأكثر جشعاً، فليس للأثرياء ما يعتزون به إلا ما يملكونه، وما على المرء إلا أن يحترس من الفقراء».

فقلت لها: «إذا، نحن بأمان، لسنا بأثرياء».

ـ «صحيح، ولكننا قد لا نكون فقراء بما يكفي في نظره».

كانت لها حكمة تفوقت بها علي. وربما كان هذا هو أحد الأسباب التي جعلتني أحبها.

(٨)

الآن وقد أصبحت بمفردي في هذه الشقة، أحاول أن أتذكر السعادة التي عشناها معاً قبل تلك الحفلة الأولى مع (الضفادع). ولكن كيف يبلغ المرء السعادة؟ من السهل أن نصف التعاسة ـ لقد كنت تعيساً، يقول واحدنا ـ وذلك لأننا نستطيع ذكر مسبباتها، فتكون التعاسة لسبب أو آخر. أما السعادة فتشبه إحدى تلك الجزر النائية الواقعة في المحيط الهادي التي يخبر عنها البحارون عندما تبزغ أمامهم من السديم، دون ان يستطيع رسام الخرائط تسجيل مكانها. وتختفي الجزيرة مرة أخرى لمدة جيل كامل، ولكن ليس بوسع أي ملاح ان يثبت قطعاً أنها كانت هناك الا في مخيلته بعد مراقبة بعيدة المدى فقط. قلت لنفسي مرات ومرات كم كنت سعيداً خلال تلك الأسابيع ولكن عندما أبحث في فكري عن السبب لا أجد التعليل المناسب لسعادتي تلك.

هل تكمن السعادة في معانقة جنسية؟ بالطبع لا. فهي ليست أكثر من اهتياج أو انفعال وفي بعض الأحيان تكون قريبة من الشعور بالألم. هل السعادة بكل بساطة صوت أنفاس هادئة على وسادة بجانبي؟ أم هي أصوات تصدر من المطبخ عندما أعود من عملي في المساء فأقرأ صحيفة جينيف في المقعد المريح الوحيد الذي كنا نملكه؟ كان بوسعنا شراء مقعد ثان لكن وقتنا لم يسمح بالخروج للبحث عنه في تلك الاسابيع، وعندما تمكنا اخيرا من شرائه في فيفي ـ اضافة الى ماكنة لغسل الصحون استبدلت بضجيجها الطقطقة المرحة المنبعثة من غسل الصحون باليد ـ كانت جزيرة السعادة العظيمة قد بدأت بالضياع في السديم.

بدأ خطر حفلة الدكتور فيشر بالاقتراب شيئاً فشيئاً، وأصبح في تلك الفترة موضع نزاع بيننا ليحل محل صمتنا. ومر ظل أكثر عتمة من ظل ملاك فوق رؤوسنا.

وقطعتُ صمتاً طويلاً أخذنا مرة بقولي: «أظن انني سأكتب إليه رغم كل شيء وأخبره بأنني لا أستطيع الحضور. سأقول. . . ».

- «ماذا ستقول».

- «سأقول بأننا سنذهب في إجازة وسيكون موعدها في الوقت الوحيد الذي تستطيع فيه شركتي ان تسمح لي بذلك».

- «لا يأخذ الناس اجازاتهم في شهر تشرين الثاني».

- «اذا، سأكتب إليه انك مريضة ولا يمكن أن أتركك».

- «انه يعلم انني قوية كالحصان».

ما قالته كان صحيحاً، ولا بد أنها كانت حصاناً أصيلاً يتطلب في رأيي عناية كبيرة. كانت رشيقة وذات عظم ناعم، وكنت أحب لمس عظم وجنتيها وتدويرة جمجمة رأسها. وكانت قوتها متمثلة في رسغيها الصغيرين القويين وكأنهما وتران. فقد كان بامكانها رفع غطاء مسنن من وعائه بطريقة أذهلتني.

ثم قالت: «من الأفضل ألا تفعل ذلك، لقد كنت مصيباً في قبول الدعوة وأنا المخطئة وان انت ألغيتها الآن فسيعتقد انك جبان ولن تغفر هذا لنفسك. وعلى كل فهي مجرد حفلة، ولن يستطيع ان يؤذينا، فلست بالسيد كيبس ولسنا بأثرياء ونحن لا نعتمد عليه. وبذا لن تضطر الى حضور حفلة أخرى».

- «لن أفعل بالتأكيد». قلت هذا وآمنت به فعلاً في حينه، وعلى كل، فقد كان الموعد يقترب بسرعة، وهامت سحابة كبيرة فوق البحر، واختفت الجزيرة عن الأنظار ولم يكن لي علم بخطوط العرض والطول لأسجلها في أية خارطة كانت. ومرت علي أوقات كنت أشك فيها إن كنت قد رأيت تلك الجزيرة فعلاً.

ثمة شيء آخر اشتريناه في فترة التسويق تلك، وكان ذلك زوجاً من أحذية التزلج على الثلج. فقد قامت والدة أنا ـ لويز بتدريبها على التزلج منذ ان كانت في سنها الرابعة لذا اصبح التزلج عندها بسهولة المشي. وكان موسم الثلج يقترب. وعندما انضمت الي في فيفي تركت حذاءيها الخاصين بالتزلج في بيتها، ولم يدفعها اي شيء مهما كان للعودة لتأتي بهما أو لتبحث عن الجزمتين كذلك. واستغرقت عملية الشراء وقتاً طويلاً ومع ذلك فقد كنا سعداء، فما دمنا مشغولين لم نأبه بمراقبة

السحب. وتمتعت بالنظر إليها وهي تختار أحذية التزلج باعتبارها خبيرة، ولم تبد لي قدماها أجمل إلا وهي تجرب الجزمتين الثقيلتين اللتين كانت بحاجة إليهما.

نادراً ما كانت المصادفات في تجاربي من النوع السعيد، ويا لرياء قولنا: «يا للمصادفة السعيدة!» عندما نلتقي بأحد معارفنا في فندق غريب ونحن ننشد في الحقيقة ان نكون بمفردنا. في طريق عودتنا الى البيت، مررنا بمكتبة فنظرت عبر نافذتها لأنني معتاد ان أتفحص المكتبات كلها وكأنه تصرف آلي لا ارادي. في تلك المكتبة كانت الواجهة مليئة بقصص الاطفال، ففي شهر تشرين الثاني تقوم المحلات بتحضيرات بضائع عيد الميلاد. فألقيت نظرتي الآلية على وسط النافذة وإذا بشخصية السيد كيبس برأسه المومىء الى الرصيف باحثاً عن الدولار.

- «انظري».

قالت آنا - لويز: «نعم تصدر طبعة جديدة في كل عيد ميلاد. وربما يدفع والدي أجرا للناشر أو أن عدد الاطفال الذين يقرأون الكتاب يتجدد باستمرار».

فقلت لها: «لا بد ان السيد كيبس يتمنى لو يعمم استعمال حبوب منع الحمل على نطاق عالمي ليمنع تكاثر هؤلاء الاطفال».

- «عندما أنتهي من التزلج سأمتنع عن تناول تلك الحبوب وبذا سأقدم قارئاً آخر للسيد كيبس».

- «ولماذا الانتظار؟».

- «أنا متزلجة جيدة ومع ذلك فالحوادث تقع دائما، لذا لا أريد ان أكون حاملاً وأنا ملفوفة بقالب من جبس».

لم نستطع تجنب فكرة حفلة الدكتور فيشر أكثر من ذلك، فقد أوشك «الغد» على المجيء لكنه كان قد حضر في عقولنا وكأنه سمك قرش يهدد قاربنا الصغير الذي رأينا منه تلك الجزيرة مرة. استلقينا تلك الليلة على الفراش وتلامس كتفانا لكننا كنا منفصلين وكأن قلقنا قد أبعدنا عن بعضنا مسافة شاسعة. ثم ناقشتني آنا - لويز قائلة:

- «يا لسخافتنا. ماذا بوسعه أن يفعل لنا؟ لست بالسيد كيبس. ماذا يهمنا حتى لو ملأ المحلات جميعها برسم (كاريكاتيري) لوجهك؟ ومن سيعرفك؟ ولن تقوم شركتك بطردك بمجرد ان يدفع لهم خمسين ألف فرنك؟ وهو مبلغ لا يشكل حتى مكسب

نصف ساعة من عملهم. ونحن لا نعتمد عليه في أي شيء. نحن أحرار. احرار.
ردد بعدي: أحرار».

- «ربما يكره الحرية بقدر ما يمقت الناس».

- «لا يمكن ان يحولك الى (ضفدع)».

- «أتمنى ان اعرف لماذا يريد حضوري».

- «ذلك فقط ليُري الجميع بأنه قادر على ارغامك على المجيء، وقد يحاول إهانتك أمامهم فهذه هي طبيعته. تحمل ذلك لمدة ساعة أو اثنتين. فإن تطاول عليك أقذف النبيذ في وجهه ثم اخرج. تذكر دائماً يا حبيبي اننا أحرار. لا يستطيع إيذاءك أو إيذائي. فصغر شأننا يحول دون إهانتنا مثل الرجل الذي يحاول إهانة النادل، فلا يهين بذلك إلا نفسه».

- «نعم، أنت على حق، انه أمر تافه ومع ذلك أتمنى معرفة نواياه».

أخيراً، أخلدنا الى النوم ومر اليوم التالي ببطء حركة المعوق؛ مثل السيد كيبس، حتى حل المساء. كانت سرية حفلات الدكتور فيشر وفيض الاشاعات البغيضة هي التي جعلتهانذير شؤم، ولكن لا بد انها كانت تنطوي على نوع من التسلية وذلك لأن مجموعة (الضفادع) واظبت على حضورها. فلماذا يحضرها السيد كيبس مثلاً مرة اخرى بعد أن أهين هكذا؟ ربما يعود السبب إلى عدم استعداده للتخلي عن أتعاب توكيله، ولكن اللواء ـ من المؤكد انه لا يتحمل أمراً مخزياً كهذا. فليس من السهل الوصول الى رتبة لواء في سويسرا الحيادية. واللواء المتقاعد يتمتع بهيبة وله حماية مثل تلك التي يتمتع بها طائر نادر.

أتذكر كل تفاصيل ذلك اليوم المضطرب. احترق خبز الفطور بسببي، ثم وصلت المكتب بتأخير خمس دقائق، وأرسلوا الي رسالتين باللغة البرتغالية لأقوم بترجمتها، مع انني لم أكن أعرف البرتغالية، واضطررت بعد ذلك الى العمل خلال فترة الغداء أيضاً بسبب ذلك الحلواني الاسباني الذي تشجع بعد تناولنا الغداء معاً على إرسال عشرين صفحة من المقترحات، وطلب مني الاجابة عنها قبل عودته من مدريد (اضافة الى ذلك فقد طلب تعديل أحد انواع منتوجاتنا لكي يتناسب وذوق الشعب الباسكي ـ واتضح لي انني أسأت الفهم؛ فلم أكن أعلم بأننا كنا نستخف بالشعور الباسكي الوطني عن طريق شوكولاتة الحليب المطعمة بالويسكي).

وتأخرت جداً في العودة للبيت كما جرحت نفسي اثناء الحلاقة وكدت ارتدي السترة التي لا تناسب السروال الغامق الوحيد الذي كان عندي. وفي طريقي الى جينيف توقفت عند محطة تعبئة الوقود واضطررت ان ادفع نقدا لأنني نسيت ان أنقل بطاقة الرصيد عندما بدلت سترتي. وبدت لي الاحداث كلها وكأنها نذير ليلة بغيضة.

(٩)

فتح لي الباب الخادم الكريه نفسه الذي تمنيت ألا اراه مرة اخرى. كانت هناك خمس سيارات فخمة مركونة على الطريق المؤدي الى المبنى، اثنتان منها بسائقين، وأظن أن الخادم نظر الى سيارتي (فيات ٥٠٠) الصغيرة بكل ازدراء، ثم نظر الى بدلتي وقطب حاجبيه وسألني: «الاسم؟»، مع ثقتي بانه كان يتذكر اسمي جيدا. كلمني بانكليزية تشوبها لهجة كوكنية؛ اذا فقد تذكر جنسيتي.

قلت: «جونز».

- «ان الدكتور فيشر مشغول».

- «انه ينتظرني».

- «الدكتور فيشر يتناول العشاء مع اصدقائه».

- «يصدف انني ساتناول العشاء معهم بدوري».

- «عندك دعوة؟».

- «بالطبع عندي دعوة».

- «ارني البطاقة».

- «لا يمكن، لقد تركتها في البيت».

عبس في وجهي ورأيت ان ثقته بنفسه خذلته. فقلت له:

- «لا اظن ان الدكتور فيشر سيرضى لو كان هناك مقعد خال عند مائدته، فالافضل لك ان تذهب وتسأله».

ـ «ماذا كان اسمك؟».

ـ «جونز».

ـ «اتبعني».

تبعته وهو بسترته البيضاء عبر القاعة حتى اعتلى السلم حيث استدار نحوي وقال:

ـ «ان كنت تكذب علي.. وان لم تكن مدعوا...».

واشار الي بحركة الملاكم الهجومية. فسألته:

ـ «ما اسمك»؟

ـ «وما شأنك انت؟».

ـ «اريد فقط ان اذكر للدكتور فيشر الطريقة التي تستقبل بها اصدقاءه».

ـ «اصدقاء؟ ليس لديه اصدقاء. واعيد القول، لو لم تكن مدعوا...».

ـ «انا مدعو».

استدرنا إلى الجهة المقابلة لغرفة المكتبة حيث التقيت بالدكتور فيشر في المرة الاخيرة، ففتح احد الابواب على مصراعيه وقال: «السيد جونز!». ابتسم الرجل ودخل الغرفة حيث وقفت هناك جميع (الضفادع) تحدق في. وكان الرجال يرتدون سترات الولائم، اما السيدة مونتغمري فكانت ترتدي فستانا طويلا. قال الدكتور فيشر: «تفضل يا جونز!». «متى يصبح العشاء جاهزا، تستطيع المباشرة في تقديمه يا آلبرت».

صفت على المائدة أقداح بلورية عكست الضوء المنبعث من الثريا التي اعتلت تلك المائدة. وحتى صحون الحساء بدت لي من الصنف الغالي، وتساءلت عن سبب وجود تلك الصحون، فموسم الحساء لم يحن بعد. قال الدكتور فيشر: «هذا صهري، السيد جونز. يجب ان تعذروا منظر القفاز الذي يرتديه فهو يغطي تشوها». ثم استمر قائلا: «السيدة مونتغمري، السيد كيس، السيد بيلمونت، السيد ريشارد دين، اللواء كروغر» (ليس هو من يخطيء بتلقيب كروغر). شعرت بتصاعد دخان حقدهم الذي سلط علي وكأنه الغاز المسيل للدموع. لماذا؟ ربما بسبب بدلتي الداكنة وكأنها وضعتني في مركز أقل من مراكزهم.

ـ «لقد التقيت بالسيد جونز سابقا». قالها بيلمونت وكأنه شاهد دعوى يتعرف على المتهم .

فقالت السيدة مونتغمري : «وانا كذلك». وأضافت : «لبرهة خاطفة»

قال الدكتور فيشر: «ان السيد جونز لغوي عظيم فهو يترجم الرسائل عن الشوكولاتة».

فاتضح لي بانه قام بالسؤال عني عند مستخدمي .

ـ «اما هنا يا جونز في حفلاتنا الصغيرة هذه، فنحن نتداول اللغة الانكليزية؛ لغتنا العامية بالطبع وذلك لان ريشارد دين، مهما كان ممثلا عظيما، فهو لا يتكلم لغة اخرى، مع انه يحاول بعض الاحيان التحدث بقليل من الفرنسية عندما يشرب وخاصة بعد ان يكمل الكأس الثالثة، اما على الشاشة فلا تسمعون الا عدم براعته المسجلة بالفرنسية».

ضحك الجميع بالتسلسل وكأنهم في رتل ما عدا ريشارد دين الذي افتر ثغره عن ابتسامة مرحة.

ـ «تبدأ مواهبه بعد تناول كأس او اثنين فيقوم بتمثيل مسرحية (فالستاف) لكن ينقصه قليل من روح المرح وقليل من الوزن، وهذه الليلة سنعالج مشكلة وزنه، اما روح المرح فهي مسألة تفوق طاقتنا للاسف، وبذا لم يبق له الا سمعته المتضائلة مع النساء والمراهقات. يا سيد كيبس، اراك لا تستمتع، فهل من خطأ ما؟ ربما تفتقد مقبلاتنا الاعتيادية، ولكن هذه الليلة لم أرغب في افساد شهيتكم للطعام وذلك تهيئة للوجبات التي ستلي». فقال السيد كيبس :

ـ «كلا، كلا، واؤكد لك، ما من خطأ يا دكتور فيشر».

قال الدكتور فيشر: «انا اصر ان يستمتع الجميع في حفلاتي الصغيرة هذه».

فقالت السيدة مونتغمري : «انهم لمشاغبون. يا لهم من جماعة شغب».

ثم اخبرني اللواء كروغر بلطافة: «ان الدكتور فيشر مضيف ممتاز لا يغير مستواه».

فاضافت السيدة مونتغمري : «ويا له من كريم، فهذا العقد الذي ارتديه كان مكافأة لي في حفلتنا السابقة». كانت ترتدي عقدا ثقيلا من قطع ذهبية بدت لي من

بعيد وكأنها قطع من عملة جنوب افريقيا (الكروغران).

ثم تمتم اللواء: «توجد جوائز صغيرة لكل واحد دائما». كان بالتأكيد كهلا وأشيب وربما يحتاج الى النوم، وفضلته على الاخرين، فقد بدا لي بأنه تقبلني بسهولة اكثر من غيره. فقالت السيدة مونتغمري: «ان الجوائز هناك. لقد ساعدته في اختيارها» وذهبت الى طاولة جانبية تكدست عليها رزم مغلفة بورق الهدايا. لمست احداها بطرف إصبعها مثلما يفعل الطفل عندما يتحسس جورب عيد الميلاد الذي يملأ بالهدايا؛ ومن الطقطقة التي تصدر من داخله يستطيع تمييز نوع الهدية.

فسألت: «ولم الجوائز؟».

فأجابني الدكتور فيشر: «لن تكون بالتأكيد جائزة للذكاء والا فلن يحصل اللواء على واحدة ابدا».

وكان الجميع يحدقون في كدس الهدايا. ثم شرحت لي السيدة مونتغمري: «كل ما علينا ان نفعله هو تحمل نزواته الصغيرة ومن ثم توزع بيننا الجوائز. اتصدق انه قدم لنا في احدى الامسيات سرطانا بحريا حيا الى جانب أوان فيها ماء مغلي. وكان علينا ان نصطاد السرطان بانفسنا. لكن احد تلك السرطانات قرص اصبع الجنرال». فشكا لي اللواء قائلا: «لا يزال اثر الجرح موجودا».

فعلق الدكتور فيشر: «كان ذلك هو الجرح الوحيد الذي اصيب به خلال معركة».

وكررت السيدة مونتغمري عبارتها وكأنني لم افهم المقصود: «كان ذلك شغبا بالفعل».

فقال الدكتور: «على كل حال فقد حول ذلك شعرها الى اللون الازرق، بعد ان كان لونه قبل تلك الليلة رماديا كريها مبقعا بالنيكوتين». فقالت: «لم يكن رماديا، بل كان ذا لون اشقر طبيعي ولم يكن ملطخا بالنيكوتين».

فقال لها: «تذكري القوانين يا سيدة مونتغمري. اذا ناقضت قولي مرة اخرى فستخسرين جائزتك».

قال السيد بيلمونت: «هذا ما حدث مرة للسيد كيبس في احدى حفلاته، فقد خسر ولاعة من ذهب (ذات ثمانية عشر قيراطا)، تشبه هذه»، واخرج علبة جلدية من جيبه.

قال السيد كيبس: «لم تكن خسارة تذكر فأنا لا ادخن».

ـ «احترس يا كيبس، لا تقلل من شأن جوائزي والا فقد تخسرها للمرة الثانية هذه الليلة».

فقلت لنفسي، من المؤكد ان هذا بيت للمجانين يحكمه دكتور مجنون. ولم يكن الا الفضول الذي أبقاني هناك فأنا لم أطمع بأية جائزة بالتأكيد.

قال الدكتور فيشر: «ربما ـ قبل أن نجلس لتناول العشاء، هذا العشاء الذي حظي بقدر كبير من تفكيري لاعداد لائحة الطعام، والذي ارجو ان تستمتعوا به وتعدلوا بحكمكم لما اخترته لكم ـ ربما علي الشرح لضيفنا الجديد الاداب والقواعد التي نتبعها خلال الولائم هذه».

فقال السيد بيلمونت: «هذا امر ضروري جدا، وانا أرى، ان سمحت لي، ان تخضع وجوده هنا لنوع من ـ ولم لا؟ التصويت. وعلى كل حال فنحن نشكل ناديا من نوع ما».

فقال السيد كيبس: «انا اوافق السيد بيلمونت، فكل منا يعرف مركزه، نحن نقبل بالشروط بحكم روح المرح لدينا. اما الغريب عنا فقد يسيء فهم وضعنا».

فقال الدكتور فيشر: «السيد كيبس والبحث عن الدولار. انت تخاف من ان تهبط قيمة الجوائز بزيادة عدد الضيوف مثلما تمنيت ان ترتفع قيمتها بوفاة واحد او اثنين منا».

خيم الصمت على المكان واعتقدت ان السيد كيبس سيرد بغضب من نظرة عينيه، الا انه لم يفعل وانما اكتفى بقوله: «انت تسيء فهمي».

لو قرئت الان هذه الاحداث كلها من قبل شخص اخر لم يحضر الحفلة، لاعتقد ببساطة انه مزاح اعضاء ناد يتبادلون الاهانات بطريقة ودية قبل ان يجلسوا لتناول عشاء جيد وشراب مركز ويتمتعوا بعلاقات حميمة. اما بالنسبة لي فقد كنت أراقب الوجوه واتفحص هذا المزاح الذي يخترق العظم، فوجدت تفاهة وانتقادا في المبادلات المرحة المحملة بالحقد وكأنها سحب هامت فوق الغرفة. كان الحقد من جانب المدعوين على مضيفهم، وحقد من المضيف على ضيوفه. شعرت تماما بأنني دخيل عليهم، ومع انني لم أمل الى احد منهم الا ان شعوري تجاههم كان أقل من أن يسمى حقدا.

قال الدكتور فيشر: «هيا الى المائدة، ساشرح لضيفنا الجديد الهدف الكامن وراء هذه الحفلات بينما يأتي آلبرت بالطعام».

وجدت نفسي جالسا بالقرب من السيدة مونتغمري التي كانت على يمين المضيف، كان بيلمونت يجلس الى يميني والممثل ريشارد دين في المقعد المقابل لي. وكان بجانب كل صحن قنينة من شراب (الايفورن) الجيد، ما عدا المضيف فقد لاحظت انه يفضل الفودكا البولندية.

قال الدكتور فيشر: «سأطلب منكم ان نشرب نخب ذكرى اثنين ـ هل اقول من اصدقائنا بهذه المناسبة؟ ـ بمناسبة مرور عامين على وفاتها ـ انها لمصادفة غريبة. ولذا اخترت هذا التاريخ. كان موت السيدة فافيرجون من صنع يدها. اعتقد انها لم تعد تحتمل نفسها ووجدت بدوري صعوبة في احتمالها مع انني اتخذتها في البدء دراسة مشوقة؛ فقد كانت من دون كل الجالسين حول هذه المائدة أشد واحدة فيهم جشعا وحتى هذا كثير في حقها. فقد كانت اثرى واحدة فيكم. وللحظات راقبت كل واحد منكم وهو يبدي علامات التمرد ضد الانتقاد الذي وجهته اليكم، وبذا اضطررت لتذكيركم بالجوائز التي تلي الوليمة وخطر خسارتها. ولكن لم يكن الحال هكذا مع السيدة فافيرجون، فقد قبلت كل شيء واي شيء في سبيل ان تكون مؤهلة للحصول على الهدية، مع انه كان بوسعها بكل سهولة شراء واحدة من النوعية ذاتها لنفسها. كانت امرأة بغيضة لا توصف ومع ذلك فيجب ان اعترف بانها أبدت القليل من الشجاعة في النهاية. وأشك أن احداً منكم استطاع ابداء شجاعة مماثلة، حتى ولا لواؤنا الشهم. واشك أن احداً منكم قام ولو حتى بأقل تفكير ان يخلص العالم من وجوده غير الضروري. اذاً اسألكم ان نشرب نخب روح السيدة فافيرجون».

فأطعت مثلما فعل الاخرون.

دخل آلبرت حاملا صينية من الفضة وعليها كمية كبيرة من (الكافيار) وصحون فضية صغيرة عليها بيض وبصل وقطع من الليمون. فقال الدكتور فيشر: «اعذروا آلبرت لانه يخدمني اولا».

وقالت السيدة مونتغمري:

ـ «انا اعشق الكافيار واستطيع ان اعيش على تناوله فقط».

ـ «بوسعك ان تعيشي على اكل الكافيار ان كنت مستعدة لدفع ثمنه من مالك

الخاص».

ـ «لست ثرية الى هذا الحد».

ـ «لماذا تتعبين نفسك بالكذب علي؟ لو لم تكوني ثرية الى هذا الحد لما كنت جالسة عند هذه المائدة، فانا ادعو الاثرياء جدا فقط».

ـ «اذا ماذا عن السيد جونز؟».

ـ «انه مراقب اكثر مما هو ضيف، ولكن بالطبع فهو صهري، وقد يظن ان آماله كبيرة، فالآمال هي ايضا نوع من الغنى. وانا متأكد ان السيد كيبس يستطيع تدبير أرصدة مالية له بهذا الشأن، والآمال لا تخضع للضرائب ولذا لن يحتاج الى استشارة السيد بيلمونت. آلبرت، هات الصداري!».

لاحظت لاول مرة عدم وجود مناديل مائدة أمامنا، وقام آلبرت بتثبيت صدرية حول عنق السيدة مونتغمري فأطلقت صيحة غبطة قائلة: «السرطان، انا اعشق السرطان». قال اللواء وهو يضبط صدريته: «لم نشرب نخب السيد غروسيلي المأسوف عليه، ولن اتظاهر بأنني احببته ابدا».

ـ «اسرعوا اذا، بينما يأتي آلبرت بالعشاء. نخب السيد غروسيلي. لم يحضر سوى حفلتين قبل ان يموت مصابا بالسرطان، لذا لم يتسن لي دراسة شخصيته. ولو كنت اعلم بامر السرطان، لما دعوته للانضمام الينا، فانا اتوقع من ضيوفي ان يقوموا بتسليتي لاطول فترة ممكنة. آه! ها هو عشاؤكم، استطيع إذاً المباشرة بعشائي».

اطلقت السيدة مونتغمري صرخة عالية:

ـ «هذه عصيدة، انها عصيدة باردة».

ـ «انها عصيدة اسكتلندية اصيلة، ويجب ان تعطيها حق قدرها باعتبار ان اسمك اسكتلندي». ثم تناول الدكتور فيشر قدرا من الكافيار وصب لنفسه كأسا من الفودكا.

فقال دين: «هذا سيخرب شهيتنا».

ـ «لا تقلق بهذا الشأن فلا يوجد ما يتبع هذه الوجبة».

قالت السيدة مونتغمري: «هذا تمادٍ في حقنا يا دكتور فيشر. عصيدة باردة! انها غير قابلة للاكل بتاتا».

ـ «اذا لا تأكليها يا سيدة مونتغمري، فحسب القوانين لن تخسري الا هديتك الصغيرة. وبصراحة فانا طلبت العصيدة خصيصا للسيد جونز؛ لقد فكرت في تقديم بعض انواع الطيور، ولكن كيف كان سيتدبر اكلها بيد واحدة؟».

ولدهشتي رايت ان اللواء وريشارد دين كانوا قد بدأوا بالاكل، والسيد كيبس برفع ملعقته، في اقل تقدير.

قال بيلمونت: «لو كان بامكاننا اضافة قليل من السكر ربما يهون الامر».

ـ «حسب إعتقادي، أظن أن الويلزيين، لا، لا، تذكرت يا جونز، فهم الاسكتلنديون الذين يعتبرونها كفراً لو تناول أحدهم العصيدة بالسكر. إنهم يأكلونها كما يقال بالملح. فبامكانكم بالتأكيد تناولها بالملح. قدم لهم الملح يا آلبرت، أما السيدة مونتغمري فقد آثرت أن تجوع».

ـ «أبداً، لن أفسد مزحتك يا دكتور فيشر. أعطني الملح فلا يمكن أن يجعل العصيدة اسوا مما هي عليه الآن».

وفي ظرف دقيقة أو دقيقتين وجدتهم لدهشتي قد بدأوا بالطعام في صمت واشمئزاز شديد. ربما عقدت العصيدة ألسنتهم. «أنت لم تباشر بحصتك يا جونز». قال الدكتور فيشر هذا وهو يتناول كمية إضافية من الكفيار.

ـ «لست جائعاً بما يكفي».

فقال الدكتور فيشر: «ولا ثرياً بما يكفي». وأضاف: «لعدة سنوات وأنا أدرس طمع الأغنياء. وأنظر كيف يطبقون كلمات المسيح الساخرة حرفياً بقوله: (إن الذي يملك شيئاً فسيحصل على المزيد)، ولاحظ أن الكلمة المستعملة هنا هي (يحصل) وليس (يكسب بجهد وعمل)، وهكذا الحال مع الهدايا التي أهديها في نهاية كل وليمة؛ فبوسعهم جميعاً وبكل سهولة الحصول عليها بعد شرائها لانفسهم ولكن في هذه الحالة عليهم كسبها بعمل وذلك بالتوقيع على صك. والأغنياء يكرهون توقيع الصكوك فيلتجئون الى بطاقات الرصيد الناجحة، فالبطاقة الواحدة تعوض عن مئة صك. وسيفعلون أي شيء لمجرد الحصول على تلك الهدايا. أما اختباري هذا فهو أصعب اختبار أخضعهم له وأنظر إليهم كيف يلتهمون العصيدة الباردة بسرعة لكي يحين موعد الهدايا. أما أنت، فللاسف لن تحصل على شيء ان لم تأكل».

ـ «عندي ما هو أغلى من هداياك تلك ينتظرني في البيت».

قال الدكتور فيشر: «تعبير جميل جداً ولكن لا تكن ثقتك بنفسك عالية أكثر من اللازم، فالنساء لا ينتظرن دائماً. وأنا أشك ان كانت يد مبتورة تساعد في الغرام. يا آلبرت، ان السيد دين مستعد لتناول وجبة ثانية».

فقالت السيد مونتغمري: «اوه، كلا، نرفض وجبة ثانية».

- «إنها من أجل السيد دين فأنا أريد أن أسمنه كي يستطيع تمثيل مسرحية (فالستاف)». ورشقه دين بنظرة غاضبة إلا أنه قبل الوجبة الثانية.

- «أنا أمزح بالطبع. لا يستطيع دين تمثيل (فالستاف) بأحسن من قدرة الممثلة برت اكلاند على تمثيل دور كليوباترا. فدين ليس بممثل؛ إنه أداة للجنس والمراهقات يعبدنه يا جونز، وكم سيخيب ظنهن لو رأينه بدون ملابسه ولي الحق في الاعتقاد بأنه أصيب بمرضٍ جنسي في وقت مبكر، فربما تحدّ العصيدةهذه من نشاطك يا دين، أيها المسكين. يا آلبرت، هات صحناً آخر للسيد كيبس وكما أرى فالسيدة مونتغمري مستعدة تقريبا. هيا يا لواء، أسرع يا بيلمونت. لن تحصلوا على الهدايا حتى ينتهي الجميع».

ذكرني المشهد بصياد يقوم بقيادة كلاب الصيد بقرقعة من سوطه.

- «راقبهم يا جونز، كم هم متشوقون للانتهاء من الطعام حتى أنهم نسوا أن يشربوا شيئاً».

- «لا أعتقد أن شراب الايفورن يلائم وجبة العصيدة».

- «اضحك منهم يا جونز، فلن يقلقهم ان فعلت».

- «لا أجد فيهم ما يضحك».

- «بالطبع انا اوافق بان لهذه الحفلة جانباً جدياً، ولكن مع ذلك. . ألا يذكرك هذا بالخنازير التي تأكل من المعلف؟ ويمكن الإعتقاد حتى بأنهم يتمتعون بذلك. لقد أسقط السيد كيبس قليلاً من العصيدة على قميصه. نظفها له يا آلبرت».

- «أنت تثير اشمئزازي يا دكتور فيشر».

حول نظره إلي. كانت عيناه مثل شظايا ملمعة من حجر ازرق فاتح. وقد تعلقت بعض حبات رمادية من الكافيار على شاربه الاحمر.

- «نعم، أستطيع تقدير شعورك فأنا أشعر بالطريقة ذاتها في بعض الأحيان، ولكن يجب لبحثي أن يستمر. أحسنت يا لواء فأنت تلحق بهم. أنت تحسن استعمال

الملعقـة. وأنت يا دين يـا ولدي أتمنى لـو استطاعت المعجبـات من الإنـاث ان يشاهدنك في هذه اللحظة، وأنت تسرف في الأكل هكذا».

فسألته: «لماذا تفعل هذا؟».

ـ «ولماذا أخبرك؟ فلست واحداً منا، ولن تصبح كذلـك ابداً، ولا تحسب انك ستحصل على ما يحقق آمالك مني».

ـ «أنا لا أحسب ذلك».

ـ «كما أرى أن لك غرور الفقير، ومع ذلك لماذا لا أخبرك، فأنت كالإبن نوعاً ما. أريد أن أكتشف يا جونز ان كان لجشع الأغنياء حدود، وإن كانت هناك فعلا الجملة القائلة (إلى هنا وما من مزيد)، وإن كان سيأتي اليوم الذي سيرفضـون فيه نيـل هداياهم، فجشعهم لا تحده الكبرياء بالتأكيد، وتستطيع أن ترى ذلك بنفسك هذه الليلة. فالسيد كيبس مثلا يشبه السيد (كروب) الذي كان مستعداً أن يجلس بكل سعادة إلى جانب هتلر ويقبل بأي طعام يقدم إليه توقعا وطمعاً في أفضاله. لقد أسقط اللواء قليلاً من العصيدة على صدريته، أعطه واحدة نظيفة يا آلبرت. أعتقد أن هذه الليلة تشير إلى نهاية أحد الاختبارات. فأنا ألعب بفكرة أخرى».

ـ «أنت رجل غني بدورك، هل توجد حدود لجشعك أنت؟».

ـ «ربما سأكتشف يوما ما، ولكن جشعي من نوع يختلف عنهم يا جونز، فأنا لا أطمع في أشياء تافهة».

ـ «الأشياء التافهة لا تؤذي».

ـ «أحب الاعتقاد بأن طمعي أكثر شبهاً بطمع الخالق».

ـ «لماذا ؟»

ـ «اوه، لا تصدق لحظة بأني اؤمن به أكثر من عدم إيماني بالشيطان، لكنني وجدت دائماً أن نظرية اللاهوت لعبة ثقافية مسلية. يا آلبرت! لقد فرغت السيدة مونتغمري من تناول عصيدتها. ماذا كنت أقول؟».

ـ «كنت تقول انه طماع».

ـ «يقول المؤمنون به والعاطفيون انه يطمع في حبنا. أما أنا فأفضل الإعتقاد، من تقديري لهذا العالم الذي من المفترض انه قام بخلقه، بأنه كان يطمع في إهانتنا،

فكيف لهذا الطمع أن يستنفد؟ إنه بلا حدود. فبينما يتحول العالم من تعس إلى أتعس يقوم هو بزيادة الضغط علينا. رغم أنه يعطينا الهدايا. وذلك لأنه لو أصاب العالم كله انتحار جماعي لأفسد ذلك هدفه؛ لأن ذلك سيخفف من الإهانات التي نعاني منها؛ مثلا سرطان في المثانة، أو الرشح المضاعف، أو مرض التبول المستمر. وعلى سبيل المثال، أنت رجل فقير، إذاً يهبك الله هدية صغيرة، وهي إبنتي، لكي ترضى وتقنع لفترة أطول».

- «يا لها من تخفيف عظيم في حياتي، وإن كان الله قد وهبها لي فأنا ممتن له جداً».

- «ومع ذلك فقد يعمر عقد السيدة مونتغمري أكثر مما يعمر الحب الذي تدعيه».

- «لماذا يرغب في اهانتنا؟».

- «ألا أرغب أنا في إهانتكم؟ وهم يقولون بأنه خلقنا على صورته. ربما اكتشف انه صانع رديء فخاب ظنه بالنتائج. والمرء يرمي بالمادة المعطوبة في صندوق القمامة. انظر اليهم واضحك يا جونز، ألا تملك روح الفكاهة؟ صحون الجميع فارغة إلا السيد كيبس، وقد بدأوا يفقدون صبرهم الآن. حتى أن بيلمونت راح يتناول طعام كيبس بدلا منه. لست متأكدا بأن هذا يطابق القانون، لكن ساتغاضى عنه. تحملوا معي لحظة اضافية يا أصدقائي حتى أنتهي من الكافيار. فك الصداري يا آلبرت».

(١٠)

قلت لآنا ـ لويز: «كان الأمر مثيراً للاشمئزاز، لا بد أن يكون أبوك مجنوناً».

فقالت: «لو كان مجنوناً لكان الأمر أقل اشمئزازاً بكثير».

ـ «كان عليك رؤيتهم وهم يتدافعون للحصول على هداياهم إلا السيد كيبس الذي أضطر للذهاب إلى المغاسل ليتقيأ أولا، فالعصيدة الباردة لم تلائم معدته. ويجب أن أعترف بأن أباك مقارنة بالضفادع احتفظ بنوع من الكرامة لنفسه.. الكرامة الشيطانية. وقد غضب الجميع مني لأنني لم ألعب لعبتهم. وكنت مثل جمهور غير متعاطف معهم. أعتقد أنني كنت أحمل مرآة إزاء وجوههم وبذا شعروا بسوء تصرفاتهم. وقد قالت السيدة مونتغمري انه كان يجب أن أطرد من المائدة منذ اللحظة التي رفضت أن أتناول فيها تلك العصيدة. فرد عليها والدك قائلاً: «كان بوسع أي واحد منكم أن يعمل الشيء ذاته».

فسألته: «وماذا كنت ستفعل بكل الهدايا؟»

أجابها: «ربما كنت سأضاعف رهاناتي عليكم في المرة القادمة».

ـ «ماذا قصد بالرهانات؟»

ـ «أظن أنه يقصد رهانه على جشعهم مقابل إهانتهم».

ـ «ماذا كانت الجوائز؟»

ـ «حصلت السيدة مونتغمري على زمردة مصاغة بالبلاتين يعتليها تاج من الماس، هذا حسب ما رأيته».

ـ «والرجال؟»

ـ «ساعات ذهب (ذات ثمانية عشر قيراطا) ـ علامة كوارتز وفيها حاسبات وكل ما يتعلق بها. كلهم ما عدا ريشارد دين المسكين فقد حصل على صورة فوتوغرافية له داخل اطار جلد الخنزير الذي رأيته في المحل. وقال له الدكتور فيشر: «ما عليك إلا التوقيع عليها لتحصل على أية مراهقة ترغب بها. فخرج دين في غيظ شديد فتبعته. قال بأنه لن يعود أبداً وأضاف: «لست بحاجة إلى صورة فوتوغرافية لأحصل على الفتاة التي أرغب فيها». ثم دخل سيارته المارسيدس السبورت.

قالت آنا ـ لويز: «سيعود بالتأكيد، فتلك السيارة كانت هدية أيضاً. ولكن، أنت ـ أنت لن تعود. هل ستعود؟».

ـ «كلا».

ـ «أتعدني؟»

فقلت: «أعدك».

ولكن الموت، كما برهنت فيما بعد، يلغي الوعود. فالوعد يقطع بحضور انسان يحيا، أما الميت فلم يعد مثلما كان وهو يحيا، فحتى صفة الحب تتغير؛ فالحب لا يعد سعادة بل يصبح شعورا بخسارة لا تطاق.

ـ «ولم تضحك عليهم؟»

ـ «لم يكن هناك ما أضحك منه».

قالت: «لا بد أن هذا الأمر خيب ظنه».

ولم تصلني دعوة أخرى: تركنا في سلام، وكم كان في ذلك الشتاء من سلام عميق بعمق الثلوج التي تساقطت تلك السنة وبهدوئها كذلك. تساقط الثلج بينما كنت أترجم رسائل من الاسبانية، والامريكية اللاتينية، وكان صمت الثلوج المتكدسة في الخارج عبر زجاج البناية الملون يشبه ذلك الصمت السعيد الذي استقر بيننا في البيت ـ وظهر لي بأنها معي في الطرف الآخر من مكتبي وكأنها جالسة هناك في آخر المساء عبر المائدة عندما كنا نلعب لعبة أخيرة بورق الكوتشينة قبل أن نخلد إلى النوم.

(١١)

في عطلات نهاية الأسبوع من بداية شهر كانون الأول، كنت أذهب بآنالـلويز الى منطقة (ليه ديابلريه) لتتزلج على الجليد لبضع ساعات. أما أنا فقد تجاوزت سن التعلم، لذا كنت أجلس في مقهى أقرأ جريدة جينيف راضياً بأنها سعيدة وهي تحلق مثل السنونو على المنحدرات البيض ودرجة الحرارة تحت الصفر. بدأت الفنادق تفتح للثلج مثلما تتفتح الزهور للربيع الفتي، وقد كان في نيتهم ان يتهيأوا لموسم عيد الميلاد الـرائـع. كنت أعشق منـظرهـا وهي تـدخـل المقهى لتنضم الي والثلج ملتصق بجزمتيها، والبرد يتوهج في وجنتيها كأنه شمعة. قلت لها مرة: «لم أشعر بسعادة مماثلة طوال حياتي». فقالت: «لماذا تقول ذلك، لقد كنت متزوجاً وكنت سعيداً مع ماري». «كنت أحبها لكنني لم أشعر معها بالأمان. عندما تزوجنا كنا في عمر واحد لذا كنت أخاف دائما من أنها قد تموت قبلي وهذا ما فعلته بالذات. أما أنت، فستبقين لي مدى العمر إلا إذا تركتني، وإن فعلت فسيكون ذلك ذنبي».

- «وماذا عني؟ يجب أن تعيش مدة تكفي لأن نرحل معا حيثما يرحل الناس معا».

- «سأحاول».

- «وبالساعة ذاتها؟»

- «في الساعة ذاتها». وضحكتُ وضحكت هي كذلك، فالموت لم يكن بالموضوع الجدي لأي منا فقد قررنا ان نبقى معا الى الأبد، وقد أطلقنا على ذلك اليوم: اليوم الأطول.

أعتقد أن الدكتور فيشر، رغم أنه لم يعلن لنا بأية إشارة عن استمرار وجوده، قد ظل مع ذلك يتردد على مكان ما في كهف عقلي اللاواعي. فقد حلمت به حلما حيا

في إحدى الليالي؛ كان يرتدي ملابس غامقة ويقف بجانب قبر مفتوح. راقبته من الجانب الآخر للحفرة ثم ناديت عليه بنبرة إستهزاء قائلا له: «من تدفن يا دكتور؟ هل كان دينتوفيل بوكيه هو السبب؟» حول ناظريه إلي، كان يبكي وشعرت أن دموعه توبخني، فاستيقظت بصرخة أيقظت آنا-لويز.

من الغريب أن يبقى الانسان متأثرا بحلم طوال النهار، فقد رافقني خيال الدكتور فيشر حتى أثناء عملي، وملأ لحظات الاستراحة بين كل ترجمة وأخرى، وكان متمثلا أمامي بأنه الدكتور فيشر الحزين الذي رأيته في الحلم وليس الدكتور فيشر المتكبر الذي شهدته وهو يترأس حفلته المجنونة. هذا الذي استهزأ من ضيوفه وقادهم لأن يفضحوا أعماق جشعهم المخزي.

قلت لآنا-لويز ذلك المساء: «أتعتقدين أننا قسونا على والدك؟»

- «ماذا تقصد؟»

- «لا بد أنه يشعر بوحدة شديدة في ذلك المنزل الكبير عند البحيرة».

- «لديه أصدقاؤه، وقد تعرفت اليهم».

- «ليسوا بأصدقائه».

- «هو الذي جعل منهم ما هم عليه الآن».

ثم أخبرتها عن حلمي، فلم تقل إلا: «ربما كان ذلك قبر أمي».

- «هل كان هناك؟»

- «نعم، كان هناك، لكنني لم أر أية دمعة تذرف منه».

- «كان القبر مفتوحا. ولم يكن في حلمي أي تابوت أو قس أو أناس في حداد سواه، الا اذا كنت واحدا منهم».

قالت: «كان هناك الكثيرون عند القبر فقد كانت امي محبوبة جدا. وحضر الخدم جميعهم».

- «حتى آلبرت».

- «لم يكن آلبرت موجودا في تلك الأيام، كان هناك خادم كهل لا أذكر اسمه الآن. وقد تركنا بعد أن ماتت أمي وتبعه الخدم كلهم. وبدأ والدي حياته من جديد مع

أناس ذوي وجوه غريبة. أرجوك لا تقل المزيد عن حلمك فهو يشبه المرء الذي يعثر على قطعة صوف في أسفل سترة فيسحبها حتى يحل خيوط السترة بأكملها».

كانت على حق، فقد كان حلمي وكأنه فاتحة لعملية حل كاملة. ربما فاقت سعادتنا حدودها قليلا. ربما بالغنا في الهرب الى عالم لا يحيا فيه سوانا نحن الاثنين. كان اليوم التالي هو السبت ولم أعمل يوم السبت، فأرادت آنا ـ لويز أن تبحث عن شريط لمسجلها (كانت تحب الموسيقى مثل والدتها)، فذهبنا الى محل في إحدى الضواحي القديمة في فيفي بقرب السوق، كانت تريد شريطا جديدا لسمفونية لموزارت اسمها (جوبيتر).

جاء رجل كهل من خلف المحل ليقوم بخدمتنا. (لا أعلم لماذا أكتب كهلاً فلا أعتقد أنه كان يكبرني كثيرا). كنت أنظر بغير إهتمام إلى مجموعة من الاسطوانات لمغن فرنسي يظهر على التلفزيون، فجاء ليسألني إن كان بوسعه أن يخدمني؛ ربما ما كان يضفي عليه مظهر الكهولة تلك النظرة المتواضعة.. النظرة التي تنبعث من الرجل الذي وصل نهاية طريق آماله ولم يبق له إلا تلك العمولة التي يقبضها من مبيعاته. وأشك أن كان هناك في المحل شخص آخر سمع عن سمفونية (جوبيتر)، فقد كان معظم المخزون من الموسيقى الحديثة الصاخبة.

قال: «آه، السمفونية الحادية والاربعون التي تعزفها فرقة سمفونية فيينا، كان أداؤهم جيداً جداً لكنني لا أعتقد بأنها من ضمن المخزون عندي»ـ وأضاف بابتسامة خجول: «لقلة الطلب عليها للأسف وهي الموسيقى الحقيقية. إن لا يضايقك الإنتظار فسأذهب إلى الأسفل وأبحث عنها في المخزن؛ ثم ألقى نظرة من فوق كتفي إلى حيث كانت آناـلويز واقفة بظهرها إلينا وأضاف: «ما دمت نازلاً فهل هناك سمفونية أخرى لموزارت؟».

لا بد أن آنا لويز قد سمعته فقد استدارت نحونا وقالت له: «ان كان لديك قطعة (قداس التتويج)؟! وتوقفت فقد كان الرجل يحدق فيها وبدت لي وكأنها نظرة رعب. وكرر: (قداس التتويج).

ـ «دعني أرى ما عندك لموزارت».

فقال مرة اخرى وكأنه الصدى: موزارت... لكنه لم يحرك ساكنا.

ـ «نعم موزارت». قالتها بنفاذ صبر، وتركتنا مبتعدة لتتفرج على الأشرطة المثبتة على

قاعدة الاشرطة الدوارة. فتتبعها بنظراته.

قالت وهي تقلّب الأشرطة باصبعها: «لا شيء غير الموسيقى الصاخبة». نظرت ثانية الى المساعد.

فقال الرجل: «آسف يا سيد سأذهب في الحال وأرى». وتحرك ببطء نحو الباب في نهاية المحل، ولكن على عتبته استدار ونظر أولا الى آنا ـ لويز ثم الي وقال: «اعدك بأنني سابذل جهدي. . .»، وبدا لي كلامه اشبه باستغاثة وكأنه سيواجه نوعا من الرعب في الاسفل. فذهبت اليه وسألته: «هل انت بخير؟».

ـ «نعم. نعم. فأنا اشكو من اضطراب خفيف في القلب، هذا كل ما في الأمر».

ـ «لا يجب عليك أن تعمل، سأنادي أحد المساعدين الآخرين».

ـ «كلا، كلا يا سيدي، أرجوك لا تفعل. ولكن لو تسمح لي أن أسألك عن شيء».

ـ «بالطبع».

ـ «تلك السيدة التي بصحبتك. . .»

ـ «زوجتي؟».

ـ «أوه، زوجتك. انها تذكرني كثيرا ـ قد ابدو تافها لك وخارجا عن الموضوع ـ فهي تذكرني بامرأة كنت أعرفها مرة. كان ذلك بالطبع قبل سنوات عديدة وبالتأكيد انها عجوز الآن؛ بعمري تقريبا، أما السيدة الشابة. . زوجتك. .»

وفجأة اكتشفت من كان يقف امامي وهو يسند نفسه بيد واحدة على مدخل الباب، كان كهلا ومتواضعا اختفت فيه معالم التحدي ـ ولا أظن أنه عرف التحدي طوال عمره. قلت له: «انها ابنة الدكتور فيشر، الدكتور فيشر من جينيف». انهار الرجل ببطء وانحنت ركبتاه، وكأنه يستعد للصلاة ثم ارتطم رأسه بالأرض.

جاءت فتاة كانت منهمكة في عرض جهاز تلفزيون لأحد الزبائن. . أتت راكضة لمساعدتي. حاولت أن أقلبه على الجهة الاخرى لكن حتى أخف الأجسام تصبح ثقيلة عندما تتجمد وتعجز. فتعاونا على قلبه على ظهره وفتحت الفتاة ياقته وقالت: «أوه، السيد ستينر المسكين».

تركت آنا ـ لويز قاعدة الأشرطة المتحركة وقالت: «ماذا حدث؟».

ـ «جلطة قلبية».

قلت للفتاة: «من الأفضل أن تتصلي بالأسعاف».

فتح السيد ستينر عينيه. كانت الوجوه الثلاثة تنظر اليه أما هو فقد نظر الى واحد منها فقط ثم أومأ برأسه قليلا وابتسم: «ماذا حدث يا آنا؟» سألها، ثم وصلت سيارة الاسعاف بعد عدة دقائق وتبعنا نقالته الى خارج المحل.

وفي السيارة قالت آنا ـ لويز: «كلمني وعرف اسمي».

ـ «نادى عليك بآنا وليس آنا ـ لويز. لقد كان يعرف اسم أمك».

لم تقل شيئا وقد عرف كلانا معنى هذا كله. وعلى الغداء سألتني: «ما اسمه؟».

ـ «نادته الفتاة ستينر».

ـ «لم أعرف اسمه أبداً فأمي كانت تطلق عليه (هو) فقط».

وبعد الغداء قالت: «هل تذهب الى المستشفى لتطمئن عليه؟ أنا لا أستطيع الذهاب، فقد أسبب له صدمة أخرى».

وجدته في مستشفى تقع بعد فيفي حيث لافتة ترحب بالمريض الجديد أو بالزائر المتشوق، وكانت تشير الى موقع الجنائز. وفوق التل يضج الطريق العام بسمفونية صاخبة متواصلة. كان يشاركه غرفته رجل كهل ملتح مستلق على ظهره وعيناه السوداوان مفتوحتان تماما تحدقان في السقف. كنت أتوقع بأنه ميت؛ لولا أن عينيه تغمزان بين لحظة وأخرى دون أن تغيرا اتجاهها وتبقيان محدقتين في سماء بيضاء من الجص.

قال السيد ستينر: «طيبة منك أن تأتي وتسأل عني، ما كان عليك ان تتعب نفسك، سيسمحون لي بالخروج غدا بشرط ألا أنفعل».

ـ «هل ستذهب في اجازة؟»:

ـ «ليس بالضرورة، فلست مضطرا لأن أحمل أي وزن ثقيل فالفتاة هي التي تقوم بالاشراف على أجهزة التلفزيون».

ـ «لكن المشكلة لم تكن من جَرّاء حمل وزن ثقيل». قلت هذا ونظرت الى الرجل الكهل الذي لم يحرك ساكنا منذ ان دخلت.

فقال ستينر: «لا داعي للقلق بشأنه فهو لا يتكلم ولا يسمعك عندما تتكلم

اليه. وأتساءل في بعض الأحيان عما يجول في خاطره. ربما يفكر في الرحلة الطويلة التي تنتظره».

- «كنت خائفا في المحل بأنك قد صعدت متن تلك الرحلة بدورك».

- «لست محظوظا الى هذا الحد».

لقد بدا واضحا بانه افتقد الارادة الواعية لأن يحارب الموت وقال: «انها تشبه امها تماما عندما كانت في سنها».

- «وهذا ما أدى الى صدمتك».

- «لقد اعتقدت في البدء بأنها مخيلتي فقط. فقد قضيت سنين طويلة بعد موتها أبحث عن شبيهتها بين وجوه النساء، ثم يئست، ولكن هذا الصباح، أنت ذكرت لي اسمه. اذا فهو ما يزال حيا. طبعا، لا بد أنني كنت سأقرأ في الصحف لو مات. فأي مليونير يحصل على نعي في سويسرا. لا بد أنك تعرفه فقد تزوجت ابنته».

- «التقيت به مرتين فقط، وهذا يكفيني».

- «لست بصديقه».

- «كلا».

- «انه رجل قاس، ورغم أنه لم يتعرف الي لكنه دمرني مثلما قتلها هي - رغم كونها ليست هي السبب. كنت أحبها لكنها ما احبتني، لكن لديه ما يخشاه لأن الموضوع لم يكن ليتكرر مرة أخرى ابدا» القى نظرة سريعة على الرجل الكهل فاطمأن وأستمر قائلا: «كانت تحب الموسيقى وخاصة موزارت. عندي اسطوانة (جوبيتر) في البيت؛ وبودي أن أعطيها لزوجتك وتستطيع اخبارها بأنني وجدتها في المخزن».

- «لا نملك حاكي الاسطوانات(٥)، لدينا مسجل للأشرطة فقط».

- «لقد صنعت الأسطوانة قبل زمن الأشرطة» وكأنه كان يريد أن يقول: «قبل زمن السيارات». ثم سألته: «ماذا تقصد بأن الموضوع لم يكن سيتكرر مرة أخرى ابدا؟».

- «كان الذنب ذنبي، وذنب موزارت.. ووحدتها أيضا. لم تكن مسؤولة عن وحدتها».

قالها بنبرة غضب ففكرت مع نفسي (ربما لو أعطيت له الفرصة الكافية ليتعلم

(٥) Gramaphone

كيف يحارب) ثم أكمل كلامه: «ربما يعلم هو الآن ما تعني الوحدة».

قلت: «كنتما عشيقين اذا». رغم أن آنا ـ لويز قالت أن علاقتهما لم تصل الى هذا الحد.

قال: «لم نكن عشيقين ـ يجب ألا تطلق على علاقتنا هذا، وليس بحالة الجمع. لقد كلمتني في اليوم التالي ـ اتصلت بي هاتفيا ـ بينما كان هو في مكتبه. لقد اتفقنا بأن الأمر لم يكن صائبا، غير صائب.. اقصد من الخطأ أن تتورط هي في أكاذيب كثيرة. فالكذب لن يوصلها الى شيء، وقد تبين فيما بعد ان مستقبلها لم يوصلها الى شيء في أية حال من الاحوال».

ـ «تقول زوجتي ان أمها نذرت نفسها للموت».

ـ «نعم، أما ارادتي فلم تكن قوية الى هذا الحد، فيا له من أمر غريب، أليس كذلك؟ فهي لم تحبني، ومع ذلك أرادت الموت، أما أنا فقد أحببتها ومع ذلك لم أملك الأرادة الكافية لأن أموت، وكان بإمكاني الذهاب الى المقبرة لأنه لم يكن يعرفني».

ـ «اذا، كان هناك من يبكي عليها ما عدا آنا ـ لويز والخدم؟».

ـ «ماذا تقصد. لقد كان هو يبكي. رأيته يبكي».

ـ «قالت آنا ـ لويز بأنه لم يبك».

ـ «أنها مخطئة. لا أظن أنها لاحظت، فقد كانت طفلة. وعلى كل فالأمر لا يهم».

من كان محقا؟ تصورت الدكتور فيشر في حفلته وهو يضرب كلابه بالسوط. ولكنني لم أستطع بالتأكيد أن أتخيله وهو يبكي. وماذا يهم؟

قلت: «أنت تعلم بأننا نرحب بك دائما. أقصد أن زوجتي ستسر لرؤيتك. تفضل لتناول كأس في احدى الأمسيات».

فقال: «كلا. أفضل ألا أفعل. لا أظن أنني سأتحمل الموقف وذلك لأنهما متشابهتان جدا».

فلم أضف اية كلمة أخرى، ولم أتوقع أن أراه مرة أخرى أبدا، أفترضت أن الرجل قد شفي بعد ذلك، لكنني لم أتوقع أن أرى وفاته في الصحيفة، لم يكن مليونيرا.

كررت لانا ـ لويز ما قاله لي، فقالت: «مسكينة يا أمي. ولكنها مجرد كذبة

صغيرة، لو أن شيئاً ما حصل بينهما، ولو مرة واحدة».

ـ «اتساءل كيف اكتشف هو». كم غريب أننا لم نسم الناس بأسمائهم، فأستعملنا، (هو)، و (هي) بصورة عامة ولكن دون أن تختلط علينا الأسماء، ربما كان هذا جزءاً من التخاطر الذي كان بيننا كعشيقين.

«قالت لي بأنه حينها راودته الشكوك ـ ركّب شيئا ما على جهاز الهاتف ليقوم بتسجيل المكالمات، وقد أخبرها بنفسه بذلك، وعندما سجلت تلك المكالمة فلا بد أنه اكتشف أمرها، وعلى كل حال فلن يدهشني لو كانت قد أخبرته هي بنفسها ـ وبأن ذلك لن يتكرر. ربما كذبت علي لصغر سني وعدم قدرتي على الفهم. فالتماسك بالأيدي، والاستماع الى موسيقى موزارت سوية سيبدو لي في ذلك العمر وكأنه ممارسة الحب ـ كما بدا له ـ أقصد والدي».

ـ «أتساءل إن كان بكى فعلا في جنازتها».

ـ «لا أصدق ذلك ـ الا اذا بكى عامداً ليرى ضحيته يختفي أمامه تاركا المكان، أو ربما بسبب حمى القش، فقد ماتت والدتي في موسم حمى القش».

(١٢)

حل عيد الميلاد ونزل الثلج فغطى الأرض حتى حافة البحيرة. كان واحدا من أبرد أعياد الميلاد التي حلت فأسعدت الكلاب والأطفال وهواة التزلج، أما أنا فلم أنتم الى أي من تلك الفئات. كان مكتبي مدفأً بصورة جيدة ومع ذلك فقد بدت لي الحديقة عبر الزجاج الملون وكأنها زرقاء، فسرت رعشة برد في جسمي. شعرت بأن عمري لا يلائم مهنتي فقد كبرت على مهنتي هذه: الشكولاته الدائمة بأنواعها بالحليب أو بدونه ـ فاللوز أو البندق، فقد بدا لي أن هذا العمل يناسب شابا أو فتاة.

فوجئت عندما فتح أحد رؤسائي باب مكتبي وسمح للسيد كيبس بالدخول. لقد ظهر لي بأن رسما متحركا قد انبعثت فيه الحياة عندما تقدم السيد كيبس نحوي بظهره المنطوي على نفسه تقريبا، مادا يده لي وكأنه يبحث عن ذلك الدولار الضائع أكثر من كونها اشارة ترحيب، فقال زميلي بنبرة احترام لم أكن قد تعودت على سماعها من قبل: «أعتقد بأنك التقيت بالسيد كيبس» فقلت له: «نعم، عند الدكتور فيشر».

ـ «لم أكن أعلم بأنك تعرف الدكتور فيشر».

فقال السيد كيبس: «السيد جونز هو زوج ابنته».

ظهر لي بأنني لاحظت نظرة خوف تغطي وجه رئيسي، فحتى الآن لم أكن ذا أهمية تستحق ملاحظته، فجأة، اصبحت أشكل خطراً له. الا يستطيع صهر السيد فيشر، بنفوذ كهذا أن يحصل على منصب في مجلس الأدارة؟

وبدون حكمة، لم أستطيع منع نفسي من ممازحته قائلا: «ان دنتوفيل بوكيه يحاول أن يصلح كل أذى يصيب اسنانك من وراء ما تقوم به هذه البناية».

كانت ملاحظة طائشة جدا وكان ممكنا أن تسمى خيانة أمانة العمل، فالأعمال الضخمة تشبه الخدمة السرية فهي تتطلب امانة مستخدميها أكثر من صدقهم.

قال لي رئيسي: «ان السيد كيبس صديق للمدير العام، ويواجه بعض المشاكل في الترجمة، والمدير العام يود أن تساعده فيها».

قال السيد كيبس: «إنها بخصوص رسالة أريد أن أبعثها الى (أنقرة)، كما أريد أن أرفقها بنسخة باللغة التركية كي اتجنب أي سوء فهم».

قال الرئيس: «سأترككما معا». وعندما أغلق الباب وراءه قال السيد كيبس: «هذا الامر سري بالطبع».

فعلا، لقد وجدت الامر هكذا منذ اللمحة الاولى. كانت هناك اشارات الى مدينتي براغ وسكودا، ومدينة سكودا في العالم أجمع تعني شيئا واحدا: التسليح! ان سويسرا بلاد الأعمال الفرعية المتشابكة بشكل غريب، فالكثير من العمليات السياسية والأقتصادية تجري في تلك الولاية الصغيرة المسالمة. وكانت جميع المصطلحات المتعلقة بتلك الترجمة تشير الى الاسلحة (ولمدة لحظات دخلت عالما بعيدا كل البعد عن الشوكولاته). وكما يبدو فهناك شركة امريكية أسمها (I. C. F. C) تقوم بشراء الأسلحة عن طريق شركة تركية من تشيكوسلوفاكيا، أما الاتجاه الأخير للأسلحة - التي كانت جميعها من الحجم الصغير - فلم يكن واضحا، وكانت هناك عدة اسماء لها علاقة بالموضوع بطريقة أو أخرى.

أما لغتي التركية فكانت أسوأ من الاسبانية وذلك لقلة ممارستي لها (فنحن لا نتعامل مع بلاد الحلوى التركية المشهورة)، كما ان الرسالة أخذت مني وقتا طويلا حتى ترجمتها، ثم قلت للسيد كيبس: «سأطلب أن يطبعوا لي نسخة واضحة».

فقال السيد كيبس: «أفضل لو قمت بذلك بنفسك».

- «أمين السر لا يعرف التركية».

- «مع ذلك...».

بعد ما انتهيت من الطبع قال لي السيد كيبس: «لاحظت بأنك قمت لي بهذه الخدمة اثناء ساعات عملك، ولهذا اقترح أن تقبل مني هدية صغيرة...».

- «هذا غير ضروري..»

- «ربما تسمح لي بارسال علبة شوكولاته من النوع المطعم بالمشروب الكحولي

لزوجتك».

ـ «أوه، لكنك تعرف يا سيد كيبس ان الشوكولاتة لا تنقصنا أبداً في هذه الشركة».

لكن السيد كيبس، والذي كان ما يزال منطويا من وسط جسمه حتى يكاد انفه يلامس طرف المكتب، وكأنه يحاول ايجاد الدولار المتملص عن طريق حاسة الشم، طوى الرسالة والنسخة الاصلية، ودسها في محفظته الجلدية، وقال: «عندما تلتقي بالدكتور فيشر، لن تخبره بالطبع عن هذه العملية السرية».

ـ «لا أظن بأننا سنلتقي مرة اخرى».

ـ «ولكن لماذا؟ فهو في هذا الموسم من السنة عادة، ان كان الطقس جيدا، ناهيك عن الثلج، يقدم اضخم حفلة خلال السنة، وسيحصل قريبا، حسب اعتقادي، كل منا على دعوة».

ـ «لقد حضرت حفلة واحدة وهذا يكفيني».

ـ «يجب ان اعترف بان الحفلة الاخيرة كانت جافة قليلا، وعلى كل حال فستسجل في ذاكرة أصدقائه على انها حفلة العصيدة، اما حفلة السرطان فقد كانت اكثر متعة ولكن المرء لا يعرف ماذا يتوقع من الدكتور فيشر، اما حفلة (طير السماني) فقد ازعجت السيدة فافيرجون. . .»، قالها بتنهيدة وأضاف: «لقد كانت متعلقة جدا بالطيور والمرء لا يستطيع ان يرضي الجميع».

ـ «ولكنني اعتقد ان هداياه ترضي الجميع دائما».

ـ «انه كريم جدا».

ثم توجه السيد كيبس بجذعه الذي يشبه الدبوس المنثني، نحو الباب: وظهر لي بان السجادة الرمادية تحته كانت كالخريطة المطبوعة وعليها الطريق الذي يجب ان يسلكه، فناديته: «لقد التقيت بأحد اصدقائك القدامى، انه يعمل في محل للموسيقى واسمه ستينر».

فاجابني: «لا اذكر هذا الاسم» ثم استمر بدون توقف في الطريق الذي رسم له على السجادة.

في تلك الليلة اخبرت آنا ـ لويز عن ذلك اللقاء فقالت: «لن نفلت منهم، فالضحية الاولى ستينر المسكين والان السيد كيبس».

ـ «لم يكن لعمل السيد كيبس اية علاقة بأبيك، وبصراحة فقد طلب مني كيبس الا

اخبر والدك شيئا ان قابلته».

ـ «وهل وعدته بذلك؟».

ـ «بالطبع فانا لا انوي اللقاء به مرة اخرى».

ـ «لكنهم ربطوك بهم عن طريق سري، اليس كذلك؟ وليس لهم نية التخلي عنك، يريدونك ان تصبح واحدا منهم والا فلن يشعروا بالأمان».

ـ «الامان؟».

ـ «في مأمن من استهزاء شخص دخيل».

ـ «يبدو لي ان الخوف من ان يكونوا في موقف سخرية لا يردعهم كثيرا».

ـ «اعلم ذلك، فالجشع ينتصر دائما».

ـ «اتساءل ماذا كانت حفلة (طير السماني) بحيث انزعجت السيدة فافيرجون».

ـ «شيء متوحش اؤكد لك».

استمر الثلج بالسقوط منبئا بان عيد الميلاد سيكون ابيض جدا، وحتى الطرق العامة اغلقت ومطار (كوانتران) قد اغلق لمدة اربع وعشرين ساعة، ولكن الامر لم يهمنا اطلاقا. فقد كان العيد الاول الذي نقضيه معا واحتفلنا به كالاطفال بدون ان ينقصنا شيء، فقد اشترت آنا ـ لويز شجرة ووضع كل منا هداياه للاخر تحت الشجرة، وكانت الهدايا مغلفة بورق ومربوطة بأشرطة جميلة، وشعرت انني اب اكثر من كوني عشيقا او زوجا، ولكن لم يعنني الامر ـ فالأب يموت اولا.

في ليلة عيد الميلاد توقف سقوط الثلج وذهبنا الى كنيسة القديس موريس لحضور قداس منتصف الليل واستمعنا الى تلك القصة عن مرسوم الامبراطور اوغسطس الجامدة العتيقة، وكيف وقع العالم تحت الضريبة. لم يكن اي منا من الروم او الكاثوليك ولكن هذا الاحتفال يمثل لنا العيد العالمي منذ الطفولة، وقد راق لنا ان نجد بيلمونت هناك يستمع بمفرده باهتمام الى مرسوم الامبراطور، فقد حضر عرسنا. ربما كان على العائلة المقدسة ان تأخذ بنصيحته وبذا تتجنب خضوعها للضريبة في بيت لحم بطريقة او بأخرى.

لقد كان في انتظارنا عندما خرجنا، ولم يكن بامكاننا تجاوزه ببدلته الغامقة ورباط عنقه الغامق وشعره الغامق وجسده النحيل وشفتيه الرفيعتين وابتسامته غير

المقنعة. قال لنا وهو يغمز بعينيه: «عيد سعيد» ودس ظرفا في يدي وكأنه امر ضريبة، وعرفت من الملمس بانه كان يحوي بطاقة، وقال: «انا لا اثق بخدمة البريد في وقت عيد الميلاد». ثم لوح بيده قائلا:

- «ها هي السيدة مونتغمري، كنت متاكدا بأنها ستأتي فهي من النوع الذي يؤمن بكل ما هو عالمي».

كانت السيدة مونتغمري ترتدي وشاحا ذا لون أزرق فاتح فوق شعرها الازرق الفاتح، وظهر عقدها الجديد من الزمرد مستقرا في تجويف عنقها الهزيل وقالت: «ها. ها، السيد بيلمونت وبطاقاته كالمعتاد، والزوج الشاب، عيد سعيد لكم جميعا. لم أر الجنرال في الكنيسة، أرجو الا يكون مريضا. آه ها هو» نعم كان اللواء واقفا هناك مؤطرا بعتبة الباب وكأنه لوحة لأحد الصليبيين، وكان ظهره صلبا كانه مدك بندقية، وبساق واحدة مُصابة بالروماتيزم وانفه كانه انف الفاتح بشاربه العنيف - كان من الصعب التصديق انه لم يسمع طوال حياته طلقة نارية تطلق في حالة غضب، كان هو ايضا بمفرده.

هتفت السيدة مونتغمري: «والسيد دين، لا بد انه كان هناك، فهو يوجد دائما ان لم يكن مشغولا بتصوير فلم في مكان ما خارج البلاد».

لقد اكتشفت بأننا كنا على خطأ مبين، فقد كان قداس منتصف الليل في كنيسة القديس موريس كحفلة (كوكتيل) اجتماعية. لم يتسنّ لنا الهرب لولا ظهور ريشارد في تلك اللحظة قادما من الكنيسة متورما ومتوردا من تأثير الكحول. وقد سمح لنا الوقت بملاحظة أنه كان بصحبة فتاة، قبل هروبنا.

قالت آنا - لويز: «يا الهي، حفلة من الضفادع».

- «كيف لنا ان نعرف بأنهم سيكونون هناك؟»

- «انا لا اصدق ادعاءاتهم بعيد الميلاد هذه، واتمنى لو استطيع التصديق ولكن «الضفادع»... لماذا يذهبون»؟

- «قد تكون عادة يمارسونها في عيد الميلاد مثل تقليد شجرتنا. لقد ذهبت بمفردي في العام الماضي مثلا، وبدون سبب، وأتوقع بأنهم كانوا هناك جميعهم، لكنني في تلك الايام لم أكن اعرف أيا منهم - تلك الايام - تبدو وكأنها كانت اعواما. حتى انني لم اكن اعرف بأنهم موجودون».

كنا مستلقين بسعادة على الفراش في تلك الليلة في فترة ما بين الحب والنوم، وكنا نتكلم بمرح عن (الضفادع) كما لو كانوا لازمة هزلية لقصتنا: القصة الوحيدة المهمة بالنسبة لنا.

سألت آنا ـ لويز: «هل تعتقدين ان «للضفادع» أرواحا؟».

ـ «اليس للجميع أرواح ـ أقصد في حالة إيمانك بالارواح»؟

ـ «هكذا تقول العقيدة الرسمية ـ اما عقيدتي فتختلف، فأنا أعتقد ان الارواح تنمو من الجنين مثلما ننمو نحن، اما جنيننا فلم يتحول الى انسان بعد فهو لا يزال يشبه نوعا من السمك، وهكذا فروح الجنين لم تتحول الى روح كاملة بعد، وانا اشك ان كان للاطفال ارواح، ومثلهم حال الكلاب، وربما كان هذا هو السبب الذي دفع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الى ابتداع ما تسميه بمنطقة الأعراف».

ـ «وانت هل لك روح»؟

ـ «اعتقد ان لي واحدة ـ مغطاة ربما بغبار الزمن، لكنها لا تزال موجودة. إذا كانت الارواح موجودة فإن لك روحا بالتأكيد».

ـ «لماذا»؟

ـ «لانك عانيت لاجل والدتك، فالاطفال او الكلاب لا تتعذب الا لنفسها».

ـ «وماذا عن السيدة مونتغمري».

ـ «ان الارواح لا تصبغ شعرها باللون الازرق. أتستطيعين حتى التخيل بانها تتساءل إن كانت لها روح»؟

ـ «والسيد بيلمونت»؟

ـ «لم يسمح له الوقت لان تنمو روحه، فالبلدان تغير قوانين ضرائبها كلما تغيرت ميزانيتها، وتمنع التهرب من العقود، لذلك فهو منهمك دائما في ابتداع طرق جديدة ليتجنبها، والروح تتطلب حياة خاصة، اما بيلمونت فليس لديه الوقت لحياة خاصة».

ـ «واللواء»؟

ـ «لست متأكدا بشأن اللواء، من المحتمل ان تكون له روح فهو يوحي بالحزن».

ـ «وهل هذا دليل دائما»؟

- «اعتقد ذلك».

- «والسيد كيبس»؟

- «لست متاكدا بشأنه ايضا، فهو يوحي بنوع من خيبة الامل، ربما يبحث عن شيء ضاع منه، وربما يبحث عن روحه وليس عن الدولار».

- «وريشارد دين»؟

- «كلا، بالتاكيد كلا، ليس له روح، قيل لي بأنه نسخ جميع افلامه القديمة ويقوم بعرضها لنفسه كل ليلة، حتى انه لا يجد الوقت لأن يقرأ الكتب التي صدرت لافلامه، انه راضٍ بذاته، وحين تكون للانسان روح لا يمكن أن يكون راضياً».

ثم خيم صمت طويل علينا، وبطبيعة الحال كان من المفترض ان نغرق في النوم، ولكن أدرك كلانا بأن الاخر ما يزال صاحياً وباننا نفكر بالشيء نفسه، فلقد تحولت مزحتي التافهة الى امر جدي، فاعلنت آنا ـ لويز عن فكرتها.

- «ووالدي»؟

- «بالتاكيد ان له روحا، لكنني اعتقد أن روحه ملعونة».

(١٣)

اعتقد أن هناك يوماً في حياة أكثر الناس تسجل فيه أتفه التفاصيل في ذاكرتهم وكأنها مختومة بالشمع، وبالنسبة لي كان هذا اليوم هو اليوم الأخير من السنة، وقد صادف يوم السبت، وفي الليلة السابقة كنا قد قررنا قيادة السيارة في الصباح إلى منطقة (ليه باكو) ان كان الطقس ملائماً، لكي تمارس آنا ـ لويز التزلج. كان الذوبان خفيفاً يوم الجمعة ولكن ليلة الجمعة كانت باردة الى حد الانجماد. كان علينا ان نذهب مبكرين قبل ان تزدحم المنحدرات ثم نتغدى معاً في الفندق هناك. استيقظت في السابعة والنصف واتصلت بمصلحة الانباء الجوية لأستعلم منهم عن اوضاع الطقس، كان كل شيء على ما يرام رغم انهم نصحوني بالحذر، قمت بتحميص الخبز وسلقت بيضتين وقدمت لها الفطور وهي في الفراش، فسألتني: «لماذا بيضتان؟».

ـ «لأنك ستموتين من الجوع قبل موعد الغداء ان كان عليك التواجد هناك عندما تفتح مصاعد التزلج». ارتدت السترة الجديدة التي أهديتها إياها بمناسبة عيد الميلاد، كانت من الصوف الأبيض السميك يعتليه شريط أحمر يمتد حول كتفيها، فبدت رائعة الجمال. انطلقنا في الثامنة والنصف حيث لم تكن الشوارع بحالة سيئة، ولكن بما ان مصلحة الأنباء الجوية اعلنت عن وجود رقع من الثلج الرقيق، فقد أضطررت الى تثبيت السلاسل بالسيارة عند (شاتيل القديس دنيس)، وانفتح مصعد التزلج قبل وصولنا. ثم حدثت بيننا مشاجرة بسيطة عند (القديس دنيس) فقد أرادت ان تتزلج على طول المسافة التي تبدأ من (كوربيتا) وتنتهي بالمدرج الاسود من (لبراليه). ولكن لقلقي عليها اقنعتها بأن تتخذ الطريق الاسهل فتنزل المدرج الأحمر حتى (لاسيرن).

وقد أحسست بارتياح داخلي عندما علمت بوجود اناس كانوا قد بدأوا انتظارهم لصعود (ليه باكو) قبلنا. بدا ذلك أكثر أمناً لأنني لم أرغب أبداً ان تتزلج آنا ـ لويز على منحدر خال. ان ذلك يشبه أن يسبح المرء في شاطىء خالٍ. فهو يخشى دائماً من تلوث غير مرئي او ربما من تيار غادر.

قالت آنا ـ لويز: «للاسف، كان بودي أن أكون الأولى فأنا أعشق التزلج على مدرج خال».

فقلت لها: «الأمان حيث يزداد العدد، وتذكري كيف كانت الشوارع. فاحذري».

ـ «أنا حذرة دائماً».

انتظرت حتى تحركت مبتعدة فلوحت لها وهي في طريقها صاعدة، وراقبتها حتى اختفت عن ناظري خلف الأشجار، ولم ألق صعوبة في تمييزها من بين الآخرين بفضل الشريط الأحمر المثبت بسترتها. ثم دخلت فندق كوربيتا وكنت قد أحضرت كتاباً معي.

كان الكتاب مقتطفات أدبية مختارة من شعر ونثر بعنوان (نابساك): ويعني (حقيبة الجندي) للكاتب هربرت ريد، صادر في العام ١٩٣٩ عندما نشبت الحرب. كان الكتاب من القطع الصغير كي يتسنى للجندي حمله بسهولة ضمن عدته. لم أكن جنديا أبدا ولكنني تعلقت بالكتاب أثناء تلك الحرب الزائفة. وقد قتلت ساعات من وقتي وأنا أنتظر في مركز الاطفاء وقوع الغارة على لندن، فبدت لي كأنها لن تقع أبداً. أما الآخرون فقد لعبوا لعبة السهام المريشة الاجبارية وهم يرتدون الاقنعة الواقية ضد الغاز. تركت قراءة الكتاب الآن، ولكن بعض الاجزاء التي قرأتها ظلت محفورة في ذلك الشمع، مثلما ظلت ليلة ١٩٤٠ تلك عندما فقدت يدي. أتذكر جيداً ما كنت اقرأه عندما رنت صافرة الانذار. ويا للمصادفة الساخرة! فقد كان قصيدة لكيتس في وصف جرة يونانية:

الأصوات المسموعة عذبة، غير أن تلك التي لا تسمع أشد عذوبة...

وبالفعل لو كانت صافرة الانذار غير مسموعة لكانت أعذب بكثير! حاولت ان أقرأ القصيدة حتى نهايتها لكنني لم أتعد هذا المقطع:

وأنت أيتها المدينة الصغيرة، أبداً ستبقى شوارعك
غارقة في الصمت. . .

وعندها اضطررت الى ترك الملجأ الأمين نسبيا. وفي الساعة الثانية صباحاً عادت تلك الكلمات الى فكري وكأنها شيء كنت قد حفظته للشاعر فيرجيل، فقد كان يخيم على المدينة صمت غريب، وكانت الاصوات كلها تصدر من فوق الرؤوس: رفرفة ألسنة النار، ووشوشة الماء وأصوات مكائن قاذفات القنابل وكأنها تنادي: «أين انتم؟ أين أنتم؟» ثم ساد هدوء في قلب هذا الدمار دام لحظات قبل انفجار هائل لقنبلة انطلقت بطريقة أو بأخرى فرقت ذلك الصمت ووصلت حتى حافة الشارع فتركتني بدون يد.

اتذكر.. وما من شيء يتعلق بذلك اليوم بصباحه ومسائه سينمحي من ذاكرتي. فمثلاً، أتذكر تلك المشاجرة الطفيفة التي وقعت في فندق كوربيتا بيني وبين النادل لأنني كنت أرغب في مقعد مجاور للنافذة كي يتسنى لي مراقبتها وهي تجتاز الشارع قادمة من أسفل المدرج من منطقة (لاسييرن). كانت تلك الطاولة مستعملة من قبل شخص آخر قبلي وعليها فنجان وصحن، بدا لي بأن النادل لم يرغب في رفعها. كان بالتأكيد رجلاً يتكلم بلهجة أجنبية. افترضت انه مستخدم مؤقت لأن الخدم السويسريين هم من أحسن الخدم في العالم. وأتذكر جيدا عندما قلت لنفسي بأن خدمته هناك لن تطول.

مر الوقت ببطء بدون آنا ـ لويز. تعبت من القراءة وأقنعت النادل، بمساعدة فرنكين ليحجز لي المنضدة، ووعدته بأن شخصاً آخر سينضم الي قريبا وسنتناول وجبة خفيفة هناك في فترة الغداء. وصلت سيارات كثيرة وعلى سقوفها الزلاجات وكان هناك صف طويل عند مصعد التزلج. ثم استمعت الى ثرثرة أحد أعضاء فريق النجاة مع صديق له كان يقف في الصف. ففريق النجاة كان على أهبة الاستعداد دوما في الفندق.

قال: «وقعت الحادثة الأخيرة يوم الاثنين، كان المعني صبيا وقد كسر كاحله. وهذه الحوادث تقع دائما في إجازات المدارس». ذهبت الى محل صغير مجاور للفندق بحثاً عن صحيفة فرنسية لكنني لم أجد سوى صحيفة لوزان اليومية التي تفحصتها عند الفطور. فاشتريت علبة شوكولاتة (التوبلرون) لنتحلى بها فقد علمت أن الفندق لا يقدم الا المثلجات ثم تعشيت وراقبت المتزلجين وهم على المدرج الاحمر. كانت

متزلجة ممتازة كما ذكرت سابقاً فقد اصطحبتها أمها للمرة الأولى وكان لها من العمر أربع سنوات. هبت ريح مثلجة فعدت الى منضدتي وقرأت مقطعا جاء ملائما للوضع تماماً ـ كان للشاعر عزرا باوند، واسم القطعة «البحار»: **معلقاً برقائق الثلج الصلبة، حيث تتطاير حبات البرد.**

لم أسمع الا البحر الهائج.

والموجة الباردة المتجمدة...

بعد ذلك فتحت كتاب المقتطفات كيفما اتفق، فإذا بقطعة اسمها ثلاث وثلاثون لحظة سعيدة (لتشن تشنغتان). وبالنسبة لي، فقد وجدت دوما نوعا مخيفا من الرضا الذاتي في الحكمة الشرقية كقوله: «ان تقطع بسكينة حادة بطيخة خضراء زاهية على صحن قرمزي كبير في أمسية صيف آه.. أليست هذه هي السعادة؟». نعم: هذا ان كان المرء فيلسوفا صينيا ثريا وذا اعتبار وقلب مطمئن في العالم. واهم شيء هو شعوره بالامان، على العكس من الفيلسوف المسيحي الذي ينمو ويزدهر انطلاقا من الخطر والشك. اما أنا فأفضل باسكال الذي يقول: «الجميع يعرفون ان منظر القطط والجرذان، او منظر الفحم المطحون.. الخ هي مناظر تثير اعصاب الكثيرين دون سبب منطقي». وعلى كل حال فأنا لا أحب البطيخ، وقد سرتني فكرة اضافة اللحظة الرابعة والثلاثين السعيدة وفيها من الرضى الذاتي ما تحويه لحظات تشن تشنغتان: «الجلوس في مقهى سويسري دافىء ومراقبة المنحدرات البيض في الخارج، في انتظار دخول الحبيبة بوجنتيها الورديتين، والثلج يغطي جزمتيها مرتدية سترة دافئة يعتليها شريط أحمر. أليست هذه هي السعادة؟».

مرة أخرى فتحت كتاب المقتطفات كيفما اتفق، ولكن أشعار فرجيل ليست مصيبة دائما، فقد وجدت نفسي امام قطعة اسمها (الأيام الأخيرة للدكتور دُن)، وتساءلت لماذا يتوقع من الجندي ان يحمل في حقيبته هذا الشعر بالذات؟ أيكون ذلك للعزاء واعادة الطمأنينة، وجربت حظي مرة أخرى. لقد طبع هربرت ريد مقطعاً من أعماله الخاصة واسمه (انسحاب من القديس كونتين) وما زلت أتذكر فحواه ولكن لا أتذكر كلماته بالتحديد، فقد كان ذلك هو آخر شيء أقرأه قبل ان أترك الكتاب جانباً وإلى الأبد. (اعتقدت بأن هذه هي لحظة الموت. لكنني فقدت كل شعور. وتذكرت مرة قراءتي عن الاضرار التي يصاب بها الرجال في الحرب. فهم لا يشعرون بالألم إلا بعد فترة). ثم رفعت نظري عن الصفحة. كان يجري امر ما عند مصعد التزلج.

وكان الرجل الذي تكلم عن الصبي ذي الكاحل المكسور يساعد رجلا آخر ليحملا نقالة الى ذلك المصعد، وقد تركا جزمات التزلج على النقالة. توقفت عن القراءة وذهبت للخارج بدافع الفضول. اضطررت للانتظار حتى عبرت عدة سيارات ثم عبرت الشارع حتى وصلت مصعد التزلج حيث كان فريق الانقاذ في طريقه صاعدا.

سألت أحد الواقفين في الصف عما حدث، فلم يبد أحد منهم اهتماما كبيرا. وقال رجل انكليزي: «سقط أحد الاطفال سقطة عنيفة، وهذا ما يحدث دائماً». فقالت امرأة: «اعتقد ان هذا تدريب للمنقذين، فهم يتصلون هاتفيا من مواقعهم في الأعلى بالمركز في الاسفل ويحاولون اكتشاف المتزلجين الذين لا يحسنون الاداء». وقال رجل آخر: «ان مشاهدة هذا التدريب مشوقة جدا. فعليهم التزلج نازلين وهم يحملون النقالة. وهذا يحتاج الى الكثير من المهارة».

عدت الى الفندق لأتجنب البرد ـ وكان بوسعي المراقبة من النافذة لكنني كنت أراقب مقعد التزلج معظم الوقت متوقعا ان تأتي آنا ـ لويز في اية لحظة لتنضم الي. ثم جاء الخادم الفظ وسألني ان كانت لي طلبات: كان مثل عداد موقف السيارات الذي يشير الى ان المدة التي تستحق فرنكين قد انتهت. وهكذا طلبت فنجان قهوة آخر. وكان ثمة حركة بين المجموعة عند مصعد التزلج. تركت قهوتي وذهبت عابرا الشارع.

كا ن الرجل الانكليزي الذي سمعته قبل برهة وهو يخمن ان طفلا قد أصيب، يقول الآن بفخر: «انها حادثة حقيقية، سمعتهم يتكلمون في المكتب، اتصلوا هاتفيا طالبين إسعافا من فيفي». وحتى تلك اللحظة، مثل الجندي في القديس كونتين، لم أتحقق بأنني كنت مصاباً ولا حتى عندما جاء المنقذون عبر الشارع من (لاسيبرن) ووضعوا النقالة بتحفظ شديد مراعين المرأة التي كانت مستلقية عليها. كانت ترتدي سترة تختلف عن السترة التي اعطيتها لآنا ـ لويز ـ فقد كانت هذه سترة حمراء اللون.

قال أحدهم: «انها امرأة. يا للمسكينة تبدو حالتها سيئة». فشاركته شعوره بالشفقة بطريقة آلية وسريعة. ثم قال لنا الرجل الفخور: «ان حالتها خطرة، لقد فقدت دماء كثيرة». كان هذا أقرب واحد الى النقالة. ومن المكان الذي أقف فيه ظننت ان شعرها ابيض لكنني اكتشفت بأنهم لفوا رأسها بالضمادات قبل ان ينزلوا بها من المنحدر. فسألت امرأة كانت واقفة مع الرجل الذي كان له علم كامل

بالموضوع: «هل هي واعية؟» فأجابها بإيماءة من رأسه.

أخذ عدد وفضول تلك الجماعة الصغيرة يقل مع ركوب الناس مصعد التزلج الصاعد. ذهب الانكليزي وتكلم مع احد المنقذين بلغة فرنسية ركيكة، ثم عاد ليشرح لنا جميعا، وكأنه معلق تلفزيوني يترجم: «يعتقدون بأنها أصيبت في جمجمتها».

أما الآن فقد تمكنت من النظر اليها مباشرة. لقد كانت آنا ـ لويز، لم تعد سترتها بيضاء وذلك بسبب الدماء.

دفعت الرجل الانكليزي جانبا فقبض على ذراعي قائلا: «لا تزحم المكان أيها الرجل فهي بحاجة الى هواء».

ـ «انها زوجتي أيها المغفل».

ـ «حقا؟ أنا آسف، هون عليك الأمر أيها الرجل».

لم تستغرق سيارة الاسعاف سوى دقائق حتى وصلت، في حين بدا لي بأنها استغرقت ساعات وقفت هناك أراقب وجهها وقد فقد كل دلائل الحياة. فقلت: «أهي ميتة؟» لا بد أنني كنت أبدو غير مبال قليلاً.

فأكد لي أحدهم: «كلا. انها فاقدة وعيها فقط، مجرد صدع في الجمجمة».

ـ «كيف حدث ذلك؟».

ـ «حسب تقديراتنا، كان هناك صبي بكاحل ملتو. وما كان عليه ان يكون في اعلى المدرج الاحمر، كان يجب ان يكون في المدرج الازرق. أتت هي من مرتفع ولم يكن لديها الوقت الكافي لتتجنبه. كان من الممكن ان تنجو لو انحرفت الى اليمين ولكن اظن بأن الوقت لم يكن كافيا لديها لأن تفكر، فانحرفت نحو اليسار باتجاه الأشجار ـ وانت أعلم بالمدرج ـ والثلج صلب وغير امين بعد الذوبان وبعد الانجماد مرة ثانية، فاصطدمت مباشرة بشجرة. وكانت منطلقة بأعلى سرعتها. لا تقلق. ستكون سيارة الاسعاف هنا في أية لحظة. وسيتبنون امرها في المستشفى».

قلت: «سأعود، يجب ان اذهب لأدفع ثمن قهوتي».

فقال الرجل الانكليزي: «انا اعتذر أيها الرجل. لم يكن في اعتقادي . . .».

ـ «لاجل الله اغرب عن وجهي». قلت له.

أما الخادم فكان في أعلى درجات الفظاظة حين قال: «لقد حجزت هذه الطاولة للغداء وقد اضطررت للإعتذار للزبائن بسببك».

فأجبته: «واحد من هؤلاء الزبائن لن تراه بعد الآن». ورميت قطعة خمسة سنتيم على المائدة فسقطت على الارض. ثم انتظرت في الباب لارى إن كان سيلتقطها. فعل ذلك وشعرت بخجل. لو كان في طاقتي لانتقمت من العالم أجمع لما حدث الآن ـ مثلما فعل الدكتور فيشر، قلت لنفسي، مثلما فعل الدكتور فيشر بالضبط. ثم سمعت صفارة سيارة الإسعاف وعدت الى مقعد التزلج.

أعطوني مقعداً بجانب نقالتها في سيارة الإسعاف وتركت سيارتنا في مكانها. وقلت لنفسي إنني سأعود لأخذها في أحد الأيام عندما تشفى آنا، وقضيت الوقت كله أراقب وجهها منتظراً أن تفيق من هذه الغيبوبة وتعرفني. وفكرت: عندما نعود لن نذهب الى ذلك المطعم بل سنذهب إلى أحسن فندق في كانتون ونتناول الكافيار مثل الدكتور فيشر. لن تمكنها حالتها من التزلج وربما سيختفي الثلج حتى ذلك الوقت. سنجلس تحت أشعة الشمس وسأخبرها كم كنت قلقاً عليها. وسأخبرها عن الرجل الانكليزي اللعين ـ وسأخبرها بأنني قلت له ان يغرب عن وجهي ـ وستضحك هي. ونظرت مرة أخرى إلى وجهها الساكن؛ كان من الممكن أن تكون ميتة لولا أن عينيها كانتا مغلقتين. والغيبوبة هي كالنوم العميق. ورحت ألحّ عليها في فكري: لا تفيقي حتى يعطوك مخدراً كي لا تشعري بالالم. نزلت سيارة الاسعاف الجبل وهي تصفر متجهة إلى حيث يقع المستشفى. ورأيت لافتة مستودع الجثث التي سبق أن رأيتها مرات عديدة، ولكنني شعرت الآن بغضب غائم بشأنها وفكرت بغباء المسؤولين الذين وضعوها هناك ليتسنى لشخص مثلي قراءتها. فقلت لنفسي: «ما شأن هذا بي وآنا ـ لويز. لا علاقة لنا به أبداً».

كانت لافتة مستودع الجثث هي الشيء الوحيد الذي بوسعي أن أشكو منه الآن. وعندما وصلت سيارة الاسعاف كان الجميع يعملون بكفاءة عالية. وكان هناك طبيبان في المدخل ينتظران وصولنا. إن السويسريين أكفاء جداً، ويكفي التفكير بالساعات المعقدة والآلات الدقيقة التي يصنعونها. لقد كان انطباعي بانهم سيصلحون آنا ـ لويز بالمهارة ذاتها التي يصلحون بها ساعة ـ ساعة ذات قيمة غير اعتيادية، ساعة كوارتز، لانها ابنة الدكتور فيشر. وقد علموا ذلك عندما قلت لهم بأن علي الاتصال به. فسألوا: «الدكتور فيشر؟». «نعم، والد زوجتي».

وشعرت من أسلوبهم أن هذه الساعة كانت تحمل ضماناً غير اعتيادي، وقد بدا ذلك عندما نقلت بعربة يصحبها أحد الأطباء الكبار، ولم أر سوى الكمادات البيض التي أوهمتني في البدء بكبر السن.

سألت ماذا عليّ أن أخبر والدها.

ـ «سنعرف ذلك بعد تصويرها بالأشعة».

ـ «هل تعتقدون أن حالتها خطرة»؟

فقال الطبيب الشاب بحذر: «يجب ان نعتبر أية إصابة بالجمجمة إصابة خطيرة».

ـ «هل أنتظر نتائج الاشعة قبل أن أتصل به؟»

ـ «بما أن الدكتور فيشر يجب أن يأتي من جينيف، فربما ينبغي الاتصال به على الفور».

لم أستوعب ما تضمنته نصيحته حتى بدأت بطلب الرقم، كما أنني لم أميز في البدء صوت آلبرت وهو يرد علي.

فقلت: «أريد مكالمة الدكتور فيشر».

ـ «من المتكلم يا سيدي؟» كان هذا صوته الذليل الذي لم أسمعه يستعمله من قبل.

ـ «قل له السيد جونز ـ صهره».

وفي الحال تحول صوته الى صوت آلبرت الاعتيادي.

ـ «اوه، السيد جونز إذاً، الدكتور مشغول».
ـ «لا يهمني ذلك. دعني اكلمه».
ـ «قال لي بأنه لا يرغب أن يزعج مطلقاً».
ـ «هذه حالة طارئة، أفعل كما أقول لك».
ـ «قد يؤدي ذلك إلى فقدان مهنتي».
ـ «سيفقدك ذلك مهنتك بالتأكيد ان لم تدعني أكلمه».

انقطاع طويل ثم عاد الصوت ـ صوت آلبرت المتغطرس وليس آلبرت الذليل.

ـ «يقول الدكتور فيشر بأنه مشغول ولا يستطيع التحدث إليك الآن. لا يمكن

مقاطعته. انه يحضر لحفلة».

ـ «يجب ان أتحدث معه».

ـ «يقول بأنك يجب أن تكتب إليه ما تريد قوله».

وقبل أن يتسنى لي الرد عليه، قطع الاتصال بيننا.

انسل الطبيب الشاب بينما كنت أتحدث على الهاتف. والآن عاد قائلاً: «للأسف يا سيد جونز، يجب اجراء عملية ـ عملية فورية. هناك الكثير من المرضى في غرفة الانتظار ولكن توجد غرفة خالية في الطابق الثاني حيث لن يزعجك احد. سآتي لرؤيتك حالما تنتهي العملية».

عندما فتح لي باب الغرفة الخالية عرفتها أو اعتقدت بأنني عرفتها. أنها الغرفة التي استلقى فيها السيد ستينر، ولكن كل غرف المستشفيات تتشابه؛ وكأنها حبوب منومة. كانت النافذة مفتوحة، حيث تسللت قعقعة ولغط الشارع العام.

ـ «هل أغلق النافذة؟» سألني الطبيب الشاب بعناية مفرطة توحي للمرء وكأنني أنا المريض.

ـ «كلا. كلا. لا تزعج نفسك؛ أفضل الهواء» لكنني كنت أريد الضوضاء، فالمرء لا يحتمل الصمت إلا إذا كان سعيداً أو غير متضايق.

ـ «إن احتجت إلى شيء فاضرب الجرس». وأشار إلى الجرس بجانب السرير وكان هناك ترمس يحتوي ماءاً بارداً موضوعاً على المائدة فذهب ليتأكد ان كان ملآن.

وقال: «لا تقلق. سأعود قريباً. حاول الا تقلق فقد واجهنا حالات أسوأ من هذه».

كان هناك مقعد مريح للزوار فجلست عليه وتمنيت لو كان السيد ستينر مستقلياً على السرير لنتكلم معا. وكنت سأرحب بالرجل الكهل الذي لم يكن قادراً على الكلام أو السمع. وعادت إلى فكري بعض من كلمات السيد ستينر. قال عن والدة آنا ـ لويز: «كنت أبحث في وجه النساء الأخريات عن شبيهتها لسنوات عديدة بعد موتها لكنني توقفت».

إن ابشع شيء في تلك الجملة هو كلمة «لسنوات عديدة» ففكرت، سنوات.. هل يستطيع المرء الاستمرار لسنوات؟ وكلما مرت عدة دقائق كنت أنظر إلى ساعتي.. مرت دقيقتان... مرت ثلاث دقائق، وفي احدى المرات كنت

محظوظا. لقد مرت أربع دقائق ونصف الدقيقة. وفكرت: هل سأمضي بقية حياتي هكذا؟

سعت طرقاً على الباب ودخل الطبيب الشاب. بدا لي في حياء وخجل فانتعش أمل حي في داخلي؛ لقد أخطأوا ولم تكن الإصابة بتلك الخطورة.

قال: «متأسف، . أخشى أن . .» ثم خرجت كلماته بسرعة. «لم يكن لدينا أمل كبير وهي لم تتعذب أبداً، فقد ماتت تحت المخدر».

- «ماتت؟»

- «نعم».

لم أجد غير ان أقول: «أوه»

سألني: «هل تود رؤيتها؟»

- «كلا».

- «هل نطلب لك سيارة أجرة؟ أرجو ألا يضايقك المجيء إلى المستشفى غدا. توجد أوراق يجب أن توقعها، فالأعمال الكتابية كثيرة دائماً».

فقلت له: «أفضل أن أقوم بكل هذا الآن، إن كان الامر عندك سواء».

(١٤)

بعثت للدكتور فيشر الرسالة التي طلبها. كتبت اليه الحقائق المرة حول موت ابنته وأخبرته عن التاريخ الذي ستدفن فيه. لم يكن الموسم موسم حمى القش لذا لم أتوقع أن أرى دموعه لكنني توقعت احتمالية حضوره. ومع ذلك لم يأت، ولم يكن هناك من يشهد دفنها تحت الارض سوى القسيس الانكليكاني وخادمتها التي كانت تأتي مرتين في الاسبوع. طلبت ان تدفن في مقبرة القديس مارتين في ارض جيبر التون (فالكنيسة الانكليكانية في سويسرا تابعة لأسقفية جيبر التار).

كان يجب ان تدفن في مكان ما بالطبع. ولكن لم يكن لي علم بدين الدكتور فيشر او دين والدتها ولا الكنيسة التي تعمدت فيها آنا ـ لويز، فلم يكن لدينا الوقت الكافي معا لنستعلم عن هذه التفاصيل غير المهمة عن بعضنا. وباعتباري رجلا انكليزيا، رأيت ان اسهل طريقة لدفنها هي اتباع الطقوس الانكليزية طالما لم يقم احد اعرفه حتى الان بتأسيس مقابر. ان اكثرية السويسريين في مقاطعة جينيف هم من البروتستانت.

ويحتمل أن تكون أمها قد دفنت في مقبرة بروتستانتية، غير أن البروتستانت السويسريين يؤمنون بدينهم بطريقة جدية ـ بينما بدا لي ان الكنيسة الانكليكانية بمعتقداتها المتناقضة هي اقرب الى آرائنا اللاادرية. وفي المقبرة راودني توقع بقدوم السيد بيلمونت في الخلفية مثلما ظهر في حفلة زواجنا، ثم ظهوره مرة اخرى في قداس منتصف الليل، لكنه اراحني بعدم مجيئه. وبذا لم يكن ثمة من أكلمه. كنت وحدي، ويمكنني أن أعود وحدي الى شقتنا، وهو ثاني أفضل شيء بعد وجودي معها.

أما ما كنت سأفعله هناك فقد قررته مسبقا. لقد قرأت قبل سنوات عديدة في

قصة بوليسية كيف يمكن الانتحار عن طريق تناول نصف (باينت)(٦) من الكحول بجرعة واحدة. وحسبما اتذكر في القصة، فقد تحدى احد الابطال بطلا اخر بشرب ما سمي بـ (سكونس)، (كان الكاتب ذا ثقافة اكسفوردية..).

ففكرت بأنني سأحصل على مفعول الشراب ذاته وذلك باذابة عشرين حبة من الاسبرين، وهي كل ما لدي، في الويسكي، ثم جلست باسترخاء على المقعد المريح الذي كانت تجلس عليه آنا ـ لويز، ووضعت القدح على المائدة بجانبي. شعرت بسلام واجتاحني شعور بسعادة غريبة، وظهر لي بأنني استطيع قضاء ساعات او حتى ايام وانا في ذلك الوضع اراقب اكسير الموت في القدح. استقرت بضع حبات اسبرين في قعر القدح فحركتها باصبعي حتى ذابت. كان وضع القدح في متناولي يشعرني بالأمان من الوحدة، وحتى من الحزن، وكانت اشبه بفترة استراحة بين فترتين من الالم، فترة يخضع طولها لمشيئتي.

ثم رن جرس الهاتف فتركته يرن فترة، لكنه ازعج هدوء الغرفة وكأنه كلب الجيران. فقمت وذهبت الى الصالة وعندما رفعت السماعة نظرت الى القدح لاستمد منه الثقة؛ ذلك الوعد لتوديع المستقبل. فقال صوت امرأة: «السيد جونز. انك السيد جونز اليس كذلك؟».

ـ «نعم».

ـ «انني السيدة مونتغمري». اذا. لقد لحق بي (الضفادع) رغم كل شيء.

ـ «الا تزال على الخط يا سيد جونز؟».

ـ «نعم».

ـ «اردت ان اقول لك... لقد سمعنا بالخبر توا... كم نحن آسفون...».

ـ «شكرا». قلت هذا واطبقت السماعة. ولكن قبل ان اصل الى مقعدي رن جرس الهاتف مرة اخرى. فعدت اليه على مضض.

ـ «نعم». وتساءلت من منهم سيكلمني هذه المرة! لكنها السيدة مونتغمري. كم من الوقت يلزم لامرأة كتلك لكي تقول كلمة مع السلامة، حتى على الهاتف.

ـ «السيد جونز. لم تسمح لي بمحادثتك. عندي لك رسالة من الدكتور فيشر، انه

(٦) وحدة قياس للسوائل

يريد مقابلتك».

ـ «كان بوسعه مقابلتي لو حضر جنازة ابنته».

ـ «اوه، ولكن هناك اسباب لهذا. . . يجب الا تلومه. . . سيشرح لك. . . يريدك ان تذهب وتقابله في اي وقت في المساء».

ـ «ولماذا لم يتصل بي بنفسه؟».

ـ «انه لا يحب استخدام الهاتف، ويكلف آلبرت بذلك. . او واحداً منا عندما نكون بالقرب منه».

ـ «اذا، لماذا لا يكتب؟».

ـ «لأن السيد كيبس مسافر الان».

ـ «أيكتب له السيد كيبس رسائله».

ـ «رسائل العمل. نعم».

ـ «ليس لدي عمل مع الدكتور فيشر».

ـ «اعتقد ان الامر متعلق بوديعة على ما أظن. ستذهب اليه. اليس كذلك؟».

ـ «قولي له. . . قولي له بأنني سأنظر في الموضوع».

وأنهيت المكالمة. وهكذا سيظل الدكتور فيشر يخمن طوال المساء ان كنت ذاهبا ام لا. اما انا فقد قررت عدم الذهاب. فكل ما اردته هو العودة الى مقعدي والى القدح الحاوي على نصف (باينت) من الويسكي الصرف. وكان ثمة ترسبات اخرى من الاسبرين فحركتها باصبعي، ولكن الشعور بالسعادة كان قد اختفى. فأنا لم أعد وحيداً. فقد بدا لي ان الدكتور فيشر يخترق الغرفة كالدخان، ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة للتخلص منه فشربت محتوى القدح بجرعة واحدة.

توقعت، تقديرا لما ورد في القصة البوليسية، ان يتوقف القلب فجأة مثل الساعة، ولكنني اكتشفت بأنني ما ازال على قيد الحياة. اعتقد ان اختياري للاسبرين كان خاطئا ـ فخلط نوعين من السم قد يبطل فعاليتهما معاً. كان علي ان اثق بالروائيين البوليسيين، فهؤلاء الناس يقومون، كما يقال، ببحث دقيق فيما يتعلق بالتفاصيل الطبية. ثم حسب ذاكرتي فالبطل الذي شرب الـ (سكونس) كان نصف ثمل، اما انا فقد بقيت بكامل صحوي. وهكذا لا يتقن المرء حتى موته!

وللحظة، لم اشعر ولو بالنعاس. وشعرت بصحو يشعر به المرء عندما يكون ثملاً قليلا، وفي صحوتي المؤقتة الواضحة تلك، فكرت: الوديعة، الوديعة، وفجأة عاد الى فكري عرض رسالة الدكتور فيشر. المال الذي تركته والدة آنا ـ لويز لها. تذكرت. كان المال مودعا على شكل أمانة، ولم تتسلم هي الا الدخل. ولم يكن لدي اي فكرة عن الشخص الذي سيمتلك رأس المال الان.

ثم انتابتني فكرة مقززة. لا يأتي الى جنازتها، ولكنه يفكر منذ الان بالشؤون المالية. ربما سيحصل هو على المال.. هذا المال الملعون. ثم تذكرت سترتها البيضاء المبقعة بالدم. لقد كان جشعا مثل جشع (الضفادع). كان هو نفسه (ضفدعاً).. بل وملك الضفادع جميعهم؛ ثم فجأة وبالطريقة التي تخيلت بها قدوم الموت، اطبق علي النوم.

(١٥)

عندما استيقظت بدا لي بأنني استغرقت في نوم دام ساعة او اثنتين. لم اشعر بثقل في رأسي. وعندما نظرت الى الساعة اشارت عقاربها الى تأخير غريب. فنظرت عبر النافذة فاذا بالسماء الثلجية الرمادية تشبه تلك التي كانت قبل ان انام. وما علي الا تحديدها: أهي سماء صباحية، ام سماء مسائية! وقفت فترة حتى ادركت بانني كنت قد استغرقت في نوم دام ثماني عشرة ساعة، ثم ذكرني كل من المقعد الذي كنت اجلس عليه، والقدح الفارغ، بحقيقة موت آنا ـ لويز. كان القدح كالمسدس المفرغ او سكينة انكسرت بدون فائدة باصطدامها بعظم الصدر، فكان علي ان ابدأ بالبحث عن طريقة اخرى للموت.

ثم تذكرت المكالمة الهاتفية واهتمام الدكتور فيشر بموضوع الوديعة. كنت رجلا مريضا بالحزن. فلا بد ان يسامح الرجل المريض على أفكاره المريضة، وهي انني اردت ان اهين الدكتور فيشر الذي قتل والدة آنا ـ لويز ودمر ستينر. اردت ان أخز غروره، اردت له العذاب الذي أعانيه. وسأذهب لمقابلته مثلما طلب.

استعرت سيارة من (الكراج) وقدتها حتى فِرسوا، وشعرت بثقل في رأسي عكس ما تصورته في البدء. وعلى الطريق العام، كدت اصطدم بخلفية شاحنة كانت تسير على أحد طرق الخروج. فخطر لي بأنها من الممكن ان تكون مميتة وفعالة كالموت بفعل الويسكي، ولكن، ربما كانت ستفشل الخطة تماما. ربما كانوا سيخرجونني من الحطام مقعدا غير قادر حتى على انجاز دمار نفسي بنفسي، فقدت السيارة بحذر بعد ذلك الا ان افكاري ظلت تسرح الى حد تلك النقطة الحمراء التي كنت أراقبها وهي تركب مصعد التزلج صاعدا نحو المدرج الاحمر. وحتى السترة الحمراء الموضوعة على النقالة، والكمادات البيض التي اوهمتني انها شعر ابيض

لشخص غريب. كدت أتجاوز طريق فرسوا بسبب انشغالي بهذه الافكار.

ظهر البيت الابيض الضخم عند البحيرة وكأنه قبر فرعون، فبدت سيارتي كالقزم بجانبه. وبدا لي أن الجرس يرن بتفاهة مقارنة بأعماق ذلك القبر الهائل. فتح آلبرت الباب، هل كلف الدكتور فيشر خادمه ليحزن بدلاً منه؟ فلسبب أو آخر كان الخادم يرتدي الملابس السود. وبدا لي أن البدلة السوداء قد غيرت من شخصيته إلى الأفضل، لكنه لم يتظاهر بعدم معرفتي، فهو لم ينظر إلي بهزء وإنما قادني فوراً الى السلم المرمري الضخم. لم يكن الدكتور فيشر بملابس حداد، وكان يجلس بالطريقة نفسها في لقائنا الأول. فقد كان خلف مكتبه (الذي كان خالياً تقريباً ما عدا وجود مفرقعة عيد الميلاد النارية ـ من النوع الذي يحتوي على مفاجأة بداخلها ـ كانت بالتأكيد من النوع الغالي المستعمل في أعياد الميلاد. وتلمع بلونين: القرميدي والذهبي)، ثم قال لي مثل المرة الأخيرة: «إجلس يا جونز». وتبع ذلك صمت طويل. ولأول مرة بدا لي وكأنه لا يجد ما يقوله. نظرت إلى المفرقعة فرفعها ثم اعادها. وهكذا استمر الصمت. أخيراً، تكلمت أنا واتهمته قائلاً:

ـ «لم تحضر جنازة ابنتك!»

قال: «إن لها من أمها الكثير، حتى بعد أن كبرت أصبحت تشبهها».

ـ «هذا ما قاله ستينر».

ـ «ستينر؟»

ـ «ستينر».

ـ «إذاً، لا يزال ذلك الرجل الصغير على قيد الحياة؟»

ـ «نعم. أو في الأقل كان ما يزال حياً قبل عدة أسابيع».

قال: «يصعب القضاء على حشرة. فهي تعود لتستقر في قطع الخشب في مكان لا يستطيع حتى الظفر الوصول إليه؟»

ـ «إن ابنتك لم تسبب لك أي أذى».

ـ كانت مثل امها. تشبهها بالشكل والشخصية، لو كان لها الوقت الكافي لسببت لك الاذى بالطريقة نفسها. وأتساءل أية حشرة من نوع ستينر كانت ستدخل في قطع الخشب الخاص بحالتك. ربما جامع النفايات، فهن يحببن إهانة غيرهم».

ـ «أأتيت بي إلى هنا لتقول لي هذا الكلام؟»

ـ «هذا ليس كل الكلام، إنما هو جزء منه. نعم لقد كنت أفكر منذ الحفلة السابقة

بأني مدين لك بشيء يا جونز، وليس من عادتي أن أؤخر دفع ديوني. كما أنك تصرفت أحسن من الآخرين».
- «أتقصد (الضفادع)؟
- «الضفادع؟»
- «هذا ما اطلقته ابنتك على اصدقائك».
- «ليس لدي أصدقاء». كررها مثلما قالها لي خادمه آلبرت ثم أضاف: «هؤلاء الناس هم معارف، والمرء لا يستطيع تجنب المعارف. يجب ألاّ تعتقد بأنني أنفر من أمثال هؤلاء. أنا لا أنفر منهم، فالمرء ينفر ممن يماثله فقط، أما هؤلاء فأنا أحتقرهم».
- «مثلما أحتقرك أنا؟»
- «اوه، لكنك لا تحتقرني يا جونز، لا تحتقرني. انك لا تتكلم بدقة. انت لا تحتقرني بل تكرهني او ربما تعتقد انك تكرهني».
- «انا اعرف بأنني أكرهك».

وبتأكيدي على هذا الأمر، ابتسم لي تلك الابتسامة التي قالت لي آنالويز أنها خطرة. كانت إبتسامة تدل على لامبالاة مطلقة، تخيلت انها إبتسامة يقوم نحات بنحتها بتهور وإبداع على وجه مغطى بالصفائح وخال من التعبير لبوذا، ثم قال: «إذاً، جونز يكرهني، يا له من شرف بالفعل، انت وأنا نتوقع تدخل أمثال ستينر في حياتنا. وللسبب نفسه بطريقة أو أخرى تكون زوجتي في حالة، وابنتي في حالة أخرى».

- «الا تسامح أحداً أبداً؟ حتى الموتى؟»
- «أوه؟ المسامحة يا جونز. إنه مصطلح مسيحي. هل أنت مسيحي يا جونز؟»
- «لا أعلم، ولكنني أعلم بأنني لم أحتقر أحداً بقدر احتقاري لك».
- «انت تستعمل المصطلح الخاطىء مرة أخرى. أن علم دلالات الالفاظ وتطورها مهم يا جونز. أقول لك. أنت تكره.. انت لا تحتقر. إن الاحتقار لا يأتي إلا من خيبة عظيمة، وأكثر الناس غير قادرين على الشعور بخيبة عظيمة. وأشك ان كنت قادراً على هذا الشعور. وبالنسبة لهم، فتوقعاتهم الدنيئة تحول دون ذلك. عندما يحتقر المرء يا جونز، يكون ذلك كجرح عميق لا علاج له. إنه بدايات الموت، ويجب على المرء أن ينتقم لهذا الجرح ما دام عنده الوقت الكافي لذلك، فإذا مات الشخص الذي أصابك بهذا الجرح، فلن يبقى لك إلا ان تهاجم الآخرين.

ربما لو كنت أؤمن لانتقمت من الذي أؤمن به لانـه جعلني قادرا عـلى أن أشعر بالخيبة. بالمناسبة، أتساءل!! وهذا سؤال فلسفي - كيف ينتقم المرء منه، اظن أن المسيحيين سيجيبونني بقولهم: عن طريق إيذاء إبنه».

- «ربما أنت على حق يا فيشر، ربما يجب أن لا أكرهك حتى، فأنا أعتقد أنك مجنون».

- «كلا.. كلا. لست مجنوناً». قالها بإبتسامته التي لا تطاق. تلك الإبتسامة الدالة على تشامخ لا يوصف .

- «أنت لست رجلاً ذا ذكاء حاد يا جونز، والا لما كنت وأنت في هذه السن تكسب عيشك عن طريق ترجمة رسائل تخص الشوكولاته، لكنني في بعض الأحيان أحب أن أترفع بالكلام على زملائي. أنها رغبة تجتاحني حتى عندما أكون مع أحد هؤلاء، ماذا أطلقت عليهم ابنتي؟ - (الضفادع). من الممتع أن أراقب ردود أفعالهم. ولن يجرؤ أحدهم أبداً على أن يسميني مجنـوناً مثلما فعلت أنت.. والا فسيخسـرون الدعوة لحفلتي القادمة».

- «ويخسرون بذلك صحناً من العصيدة»؟

- «كلا. يخسرون هـدية يـا جونـز. فهم لا يتحملون خسارة هـدية. إن السيـدة مونتغمري تتظاهر بأنها تتفهمني عندمـا تقول لي: «أوه، كم أوافقـك يا دكتـور فيشر». أما دين فأنه يغضب؛ فهو لا يطيق أي شيء يفوق مقدرته أو استيعابه وهو يدعي أن مسرحية (الملك لير) حفنة أكاذيب وذلك لأنه يدرك جيداً بأنه غير قادر على تمثيل دوره، حتى على الشاشة، وبيلمونت يستمع بانتباه ثم يغير الموضوع، فقد علمته ضرائب الدخل كيفية تجنب المواقف، أما اللواء.. فقد انفجرت في وجهه مرة واحدة، عندما لم أعد أحتمل المزيد من غباء هذا الكهل. ولم يفعل شيئاً سوى أنه أطلق ضحكة فظة وقال: «سيروا على صوت البنادق.» وبالطبع فهو لم يسمع قط صوت اطلاق نار، سوى اصـوات بنادق التـدريب. أما كيبس فهـو أفضل مستمع بينهم.. أعتقد أنه يتمنى دائما أن يجد ولو حبة من منطق في ما أقوله تكون ذات فائدة له. آه، كيبس.. أنه يذكرني بالسبب الذي من أجله أتيت بك الى هنا. الوديعة».

- «ماذا بشأن الوديعة؟»

- أنت تعلم - أو ربما لا تعلم - أن زوجي تركت دخل رأس مالها القليل الى ابنتها.

ولكن على أن تكون هي على قيد الحياة. وبعد ذلك يصبح المال من حصة الطفل الذي ستلده، لكنها ماتت بدون أولاد. لذلك فالمبلغ يعود الي. وهذا هو حسب ما ذكرته في الوصية. «سيكون ذلك لاثبات مسامحتي»، هكذا قالت كما لو كانت تهمني مسامحتها - ثم مسامحتها على ماذا؟ فإن قبلت هذا المال فسيكون ذلك كما لو أنني أقبل الغفران منها: غفرانا من امرأة خانتني مع كاتب عند السيد كيبس».

- «أمتأكد أنت أنها نامت معه؟»

- «نامت معه؟ قد تكون غفت بجانبه فقط أثناء استماعهم الى اسطوانة من الهواء، أما اذا كنت تقصد ان كانت قد ضاجعته، فلا، لست متأكداً من ذلك، إنه محتمل، لكنني لست متأكداً، وحتى لو حدث هذا فما كان سيهمني لأنه لا يتعدى نزوة حيوانية. كان ممكنا أن أتغاضى عن الموضوع لكنها فضلت مجالسته علي: مجرد كاتب عند السيد كيبس يكسب أدنى حد من الراتب، ليس الا».

- «كل شيء عندك يعني المال، أليس كذلك يا دكتور فيشر؟ فهو لم يكن ثرياً بما فيه الكفاية كي يجعل منك ديوثاً»

- «ان للمال احكاما بالتأكيد، فبعض الناس مستعدون لأن يموتوا في سبيل المال يا جونز، فهم لا يموتون في سبيل الحب الا في الروايات».

كنت أظن أن هذا بالضبط ما حاولت فعله، لكنني فشلت، ولكن هل حاولت ذلك بسبب الحب، أم خوفاً من الوحدة التي لا سبيل الى معالجتها؟

توقفت عن الاستماع الى كلامه، ثم عاد انتباهي إليه فالتقطت الكلمات الأخيرة مما كان يقول: «إذا، فالمال مالك يا جونز».

- «أي مال؟»

- «مال الوديعة بالطبع».

- «لست بحاجة إليه، فقد كنا نتدبر أمرنا نحن الاثنين بما أكسبه. وعلى هذا فقط كان اعتمادنا».

- «إنك تثير دهشتي. كنت أعتقد بأنكما قد استمتعتما في الأقل، بالمال القليل الذي تركته والدتها».

- «هذا المال لم يمس. فقد ابقيناه للطفل الذي كنا نريده». ثم اضفت: «عندما توقف التزلج»، ورأيت عبر النافذة الثلج الساقط بصورة عمودية وكأن العالم قد أبطل تمرده واستقر بكل هدوء وسط تلك العاصفة. مرةً أخرى فاتني ما كان يقوله ولم

أسمع إلاّ جملته الأخيرة: «ستكون الحفلة الأخيرة التي سأقدمها وستكون الإختبار النهائي. »،.

ـ «هل ستقدم حفلة أخرى؟»

ـ «أنها الحفلة الأخيرة واريدك أن تحضرها يا جونز. أنا مدين لك بشيء مثلما قلت لك. فأنت قمت بإهانتهم في حفلة العصيدة أكثر مما نجحت به أنا حتى الآن، أنت لم تأكل. وضحيت بهديتك. لقد كنت غريباً عنهم وفضحتهم. كم كرهوك لذلك. أما أنا فقد تمتعت بكل لحظة منها».

ـ «لقد رأيتهم في كنيسة القديس موريس عند قداس منتصف الليل، ولم أشعر بأي استياء من جانبهم. إضافة إلى أن السيد بيلمونت أهدى الي بطاقة عيد الميلاد».

ـ «هذا بديهي، فلو أبدوا مشاعرهم تجاهك فسيعني ذلك إهانة إضافية لهم. وبذا عليهم تبرير تصرفاتك. أتعلم أن اللواء قال لي بعد مرور أسبوع (ربما كانت تلك هي فكرة السيدة مونتغمري): «كنت قاسيا قليلا مع صهرك بحرمانه من هديته، يا للرجل المسكين، لم يكن ذنبه ان كانت قد اصابته نوبة ارتباك وانفعال تلك الليلة. كان من الممكن أن يحدث هذا لأي واحد منا. أنا نفسي أحسست بالاضطراب حين حدث ذلك، ولكنني لم أرغب بإفساد نكتتك».

ـ «لن تجبرني على حضور حفلة اخرى».

ـ «هذه الحفلة ستكون جدية للغاية يا جونز. أعدك بأنها ستخلو من الطيش، والعشاء سيكون ممتازا، اعدك بذلك أيضاً».

ـ «لست بمزاج يثير نهمي للطعام».

ـ «أقول لك بأن هذه الحفلة هي الاختبار الصارم للجشع، أنت اقترحت مرة على السيدة مونتغمري أن أهدي اليهم صكوكاً، إذاً سيحصلون على تلك الصكوك».

ـ «لكنها قالت لي بأنهم لن يقبلوا صكوكاً».

ـ «سنرى يا جونز، سنرى، فالصكوك ستكون مادية للغاية، وأريدك أن تحضر كي تكون شاهداً على تماديهم».

ـ «التمادي؟»

ـ «التمادي في الجشع يا جونز. جشع الأغنياء الذي لن تعرفه أبداً».

ـ «أنت غني بدورك».

ـ «نعم، ولكن كما قلت لك من قبل. فجشعي من نوع ثان. أريد. . »

ورفع بذلك مفرقعة عيد الميلاد النارية وكأنه القس في قداس منتصف الليل هو يرفع خبز القربان، وكأنه كان على وشك ان يصرح بأمر ذي أهمية عظمى لأحد اتباعه قال: «هذا جسدي» وكرر: «أريد. . . »وأعاد المفرقعة مرة أخرى .

ـ «ماذا تريد يا دكتور فيشر».

ـ «أنت لست ذكيا بما يكفي لتفهم فيما لو أخبرتك».

في تلك الليلة حلمت بالدكتور فيشر للمرة الثانية، اعتقدت بأنني لن أقدر على النوم، ولكن ربما ستساعدني تلك الرحلة بالسيارة في الهواء البارد من جينيف على النوم، وربما بتهجمي على الدكتور فيشر سأقوى على نسيان كم أصبحت حياتي بدون معنى ولو لمدة نصف ساعة! استغرقت في النوم مثلما فعلت في اليوم السابق فجأة وأنا في مقعدي، ورأيت الدكتور فيشر بوجهه المصبوغ مثل وجه المهرج وشاربيه المسحوبين الى الأعلى كامبراطور ألماني، وهو يقذف البيض بشعوذة دون ان يكسر ايا منها؛ ثم أخذ ينتج المزيد من البيض حتى امتلأ الجو بمئات البيض، ثم دارت يداه حول البيض وكأنها طيور، ثم صفق بيديه فسقط البيض على الأرض وانفجر وعندها استيقظت. وفي الصباح التالي وجدت دعوة في صندوق رسائلي: «الدكتور فيشر يدعوك للحفلة النهائية» وسيكون موعدها بعد اسبوع.

ذهبت الى المكتب ودهش الناس لرؤيتي ولكن هل كان بوسعي أن افعل شيئا آخر؟ لقد فشلت محاولتي للموت وما كان لأي طبيب أن يعطيني وأنا في الحالة التي كنت فيها دواء أقوى من مهدىء الاعصاب. ولو كانت لي الشجاعة الكافية لصعدت حتى آخر طابق في البناية ورميت نفسي من النافذة ـ هذا اذا انفتحت النافذة، وهذا ما أشك فيه ـ ولكن ليس لدي الشجاعة، اما حادث سيارة فقد يؤدي الى تورط الآخرين. وعلى كل حال فقد لا يؤدي ذلك الى قتلي المؤكد. كنت أفكر بكل هذه الأمور بدلا من الرسالة التي كان علي كتابتها الى الحلواني الاسباني الذي ما زال قلقا حول الذوق الباسكي للشوكولاته المطعمة بالكحول. وبعد العمل لم اقتل نفسي بل ذهبت الى اقرب سينما في طريقي الى البيت وحضرت فلما إباحيا فلم تحرك الأجسام العارية اي شعور غريزي في داخلي: كانت أشبه برسوم في كهف يعود الى ما قبل التاريخ وكتابات بخط غامض عن اناس لا أعرف عنهم شيئا. وعندما تركت المكان فكرت: اعتقد أن على المرء ان يأكل فذهبت الى المقهى وتناولت قطعة كعك وقدح شاي وعندما انتهيت من ذلك فكرت: لماذا أكلت؟ ما كان علي أن آكل فهناك طريقة

من المحتمل أن تؤدي الى الموت: التجويع، لكنني تذكرت محافظ مدينة كورك الذي عاش بدون طعام لأكثر من خمسين يوما، اليس كذلك؟ ثم طلبت من الخادمة قطعة ورق وكتبت عليها: «آلفريد جونز يقبل دعوة الدكتور فيشر» ووضعتها في جيبي تلافيا لأي تغيير برأيي. وفي اليوم التالي ارسلتها بالبريد دون تفكير تقريبا.

لم أعرف السبب الذي دعاني لقبول الدعوة؟ ربما كنت سأقبل أية دعوة من شأنها ان تلهيني عن أفكاري لمدة ساعة أو ساعتين. هذه الافكار التي تركزت بصورة اساس حول كيفية الموت دون أن أتألم ودون أن أسبب مضايقة للآخرين. وهناك أيضا مسألة الغرق: وبحيرة (ليمان) لا تبعد كثيرا فلن تأخذ سوى مسيرة قصيرة عبر الشارع، وسيقوم الماء البارد المثلج بقهر أية رغبة لي في السباحة. ولكن لم تكن عندي تلك الشجاعة فقد كان الموت غرقا يشكل رهاباً لي منذ أيام طفولتي، وذلك عندما دفعني احد أمناء سر السفارة الشباب في الجهة العميقة من أحد المسابح. اضافة الى ذلك فقد تتسبب جثتي بتلوث السمك الموجود في البحيرة. ثم خطرت ببالي فكرة التسمم بالغاز، ولكن شقتي كانت تعمل على الكهرباء. فكرت بعدها بدخان سيارتي لكني أبقيت تلك الفكرة في الاحتياط، وعلى كل حال، فطريقة التجويع قد تكون الجواب الامثل، فهي طريقة نظيفة وسرية وخصوصية للهروب: وقد اكون اكبر عمرا وأقل نشاطا من محافظ مدينة كورك. وبذا قررت أن أحدد موعد هذه العملية ـ بعد وليمة الدكتور فيشر.

(١٦)

للمصادفة الساخرة، تأخرت في الطريق العام بسبب وقوع حادثة: اصطدمت سيارة خصوصية بشاحنة في منطقة مجمدة من الشارع. كان كل من الشرطة والاسعاف هناك، وكانوا يقومون بسحب شيء ما من الحطام بمساعدة شعلة السيتيلين التي شعت بلهب قوي جدا حتى أن ظلام الليل المحيط بهم بدا لي ضعف ما هو عليه من سواد عندما مررت بجانبهم. وعندما وصلت، كان آلبرت يقف بجانب الباب. أما اسلوبه فقد تحسن بالتأكيد (ربما قبلوني على أني واحد من «الضفادع»)، نزل السلالم ليحييني وفتح لي باب السيارة، ولأول مرة سمح لنفسه أن يتذكر اسمي: «مساء الخير يا سيد جونز، الدكتور فيشر يقترح بأن تبقى مرتديا معطفك فالعشاء سيقدم في مرجة الحديقة».

فهتفت: «مرجة الحديقة؟» كانت ليلة صافية؛ والنجوم تشبه ببريقها شظايا ثلجية، أما درجة الحرارة فقد كانت تحت الصفر.

ـ «أعتقد بأنك ستجد المكان دافئا بما فيه الكفاية».

قادني عبر ردهة الاستقبال حيث التقيت السيدة مونتغمري سابقا، ثم اجتزنا غرفة أخرى بجدرانها المغطاة بكتب غالية مجلدة بجلد العجل ـ ربما اشتريت بالجملة؛ («المكتبة يا سيدي»). ففكرت مع نفسي: كان من الأرخص جدا لو استبدلت تلك الكتب بواجهات مزيفة، فحتى هواء الغرفة الساكن اثبت ان احدا لم يستعملها ابدا. كانت النوافذ ذات الطراز الفرنسي تطل على المرجة الفسيحة المنحدرة نحو البحيرة المختفية؛ فللحظة لم يتسن لي رؤية شيء من شدة وهج اللهب المنبعث من أربعة أعمدة تعتليها نيران صنعت خصيصا لهذه الحفلة، وكانت تطقطق للثلج تحتها، وتهدلت الأضواء من أغصان الأشجار كلها.

صاحت السيدة مونتغمري: «أليس كل هذا رائعا ومجنوناً وجميلا؟» وتقدمت نحوي خارجة من الجهة المظلمة لتستقبلني بروح مضيفة واثقة من نفسها تنادي ضيفا غير مرغوب فيه. «إنها ارض الجن، لا أعتقد أنك ستحتاج حتى الى معطفك يا سيد جونز، نحن سعداء جدا لعودتك بيننا. لقد اشتقنا اليك».

ترى من تقصد بكلمة (نحن)؟

لقد رأيتهم الآن مبهورين بالنيران، كانت (الضفادع) جميعا هناك، كانوا واقفين حول مائدة مهيأة وسط تلك النيران؛ كانت المائدة تبرق بكؤوسها البلورية التي عكست ألسنة اللهب. كانت الأجواء تختلف جدا عن حفلة العصيدة كما أتذكرها.

قالت السيدة مونتغمري: «مؤسف أن تكون هذه الحفلة هي الأخيرة، ولكنك سترى كيف انه يودعنا وداعا عظيما. لقد ساعدته في اختيار لائحة الطعام بنفسي. لا توجد عصيدة»!

فجأة وقف آلبرت بجانبي وهو يحمل صينية من كؤوس المشروبات الكحولية: الوسكي، والمارتيني الجاف، والألكساندرا. فقالت السيدة مونتغمري: «أنا أعشق شراب الألكسندرا، وهذه كأسي الثالثة، كم يبدو لي الأمر سخيفا عندما يدعي الناس بأن الشراب يفسد حاسة الذوق. أما أنا فأقول أن عدم الشعور بالجوع هو الذي يفسد حاسة الذوق».

ثم برز ريشارد دين من الظلال حاملا لائحة طعام مزينة بنقوش ذهبية. فرأيت بوضوح بأنه بدأ يسكر، ومن بعده بين قاعدتين مشتعلتين، كان السيد كيبس واقفا، ويبدا لي بأنه يضحك: ولكن كان من الصعب أن أتأكد وذلك بسبب انحنائه الذي أخفى فمه، ولكن كتفيه كانتا ترتعشان بالتأكيد. وقال دين: «هذا أفضل من العصيدة، للأسف انها الحفلة النهائية. أتعتقد أن صاحبنا بدأ يفلس؟».

قالت السيدة مونتغمري: «كلا، كلا، فقد كان يقول لنا دائما: يوما ما ستكون هناك حفلة أخيرة، وستكون الأفضل والاكثر اثارة، وعلى كل حال فأنا لا أعتقد أن له المزاج في أن يستمر في تقديم حفلاته بعدما حدث لأبنته المسكينة...».

- «أتعتقدين أن له قلبا يشعر؟».

- «آه، أنت لا تعرفه بقدر ما نعرفه نحن، فكرمه..».

وبحركة كحركة كلب بافلوف الإرادية المنعكسة، لمست الزمردة المعلقة حول عنقها.

ـ «اشربوا واستريحوا في مقاعدكم». جاءنا صوت الدكتور فيشر من زاوية مظلمة من الحديقة فسيطر علينا جميعا. لم أر مكان وقوفه حتى تكلم الينا وهو منحن على برميل يبعد عنا عشرين ياردة تقريبا، ويداه تتحركان داخله وكأنه يغسلهما فيه. قالت السيدة مونتغمري: «أنظروا الى الرجل العزيز وكيف يهتم بأدق التفاصيل».

ـ «ماذا يفعل؟».

ـ «أنه يخفي المفرقعات النارية في حوض النخالة».

ـ «ولماذا لم يضعها على المائدة».

ـ «لا يريدنا أن نفجرها خلال العشاء لاكتشاف ما في داخلها، فأقترحت انا فكرة وضعها في حوض النخالة. أتصدقون بأنه لم يسمع بشيء كهذا من قبل، وربما لأنه لم يعش طفولة سعيدة، اليس كذلك؟ لكن الفكرة أعجبته على الفور. سأشرح لكم: لقد وضع الهدايا بين المفرقعات في حوض النخالة وعلينا نحن ان نسحبها كيفما اتفق بعد غلق أعيننا».

ـ «وماذا لو أنك حصلت على قاطعة سيكار ذهبية؟».

ـ «محال. فهذه الهدايا جميعها قد أختيرت بشكل يناسب الجميع بالتساوي.».

ـ «أيوجد في الدنيا شيء ممكن ان يناسب الجميع؟».

ـ «انتظر وسترى. سيخبرنا، لتكن لديك ثقة به، أتعلم انه في داخله إنسان حساس جدا».

جلسنا حول المائدة فوجدت نفسي هذه المرة أتوسط السيدة مونتغمري وريتشارد دين وقبالتي جلس كل من بيلمونت والسيد كيبس اما اللواء فقد كان في طرف المائدة الآخر يقابل مضيفنا. كان تنظيم الأقداح يثير الاعجاب اما لائحة الشراب فقد أعلنت عن نبيذ (ميرسو لعام ١٩٧١)، ونبيذ (موتون روتشيلا لعام ١٩٦٩) ولا أتذكر تاريخ شراب (كوبرن بورت). فكرت مع نفسي: في الأقل استطيع ان أشرب الخمر الى حد الثمالة دون مساعدة اقراص الأسبرين. وكانت قنينة الفودكا الفنلندية التي قدمت مع الكافيار (وهذه المرة حصل الجميع على الكافيار)، محاطة بقالب صلب من الثلج وحتى تويجات الورد التي زينت القالب قد

تجمدت بدورها. خلعت معطفي وعلقته على ظهر مقعدي ليحميني من حرارة النيران، وتحرك البستانيان وكأنهما حارسان مقتربين ومبتعدين بخطوات غير مسموعة على بساط الثلج السميك الأبيض وهما يغذيان تلك النيران بجذوع الخشب. كان مشهداً غريباً وغير اعتيادي - فما أشد الحرارة وما أكثف الثلج، وكان الثلج تحت أقدامنا قد أخذ بالذوبان من شدة حرارة تلك النيران، ففكرت: بعد قليل سنكون جالسين وأقدامنا تغوص في ثلج ذائب.

قدم لنا الكافيار من وعاء كبير مرتين، وتناول الجميع حصتين منه ما عدا الدكتور فيشر، وقالت السيدة مونتغمري: «انه مفيد جداً فهو يحتوي على فيتامين (C)».

ثم أخبرنا بيلمونت: «انا استطيع ان اشرب الفودكا الفنلندية وضميري مرتاح». وتناول بذلك كأساً ثالثة.

فقال اللواء: «لقد حارب الفنلنديون في حملة رائعة في شتاء عام ١٩٣٩، ولو قام الفرنسيون أيضاً بالعملية نفسها عام ١٩٤٠ . . .».

سألني ريتشارد دين: «هل صادف ان شاهدتني على (سواحل مدينة دنكرك)؟».

- «كلا، لم أذهب الى دنكرك».

- «كنت أقصد الفلم الذي يحمل هذا العنوان».

- «كلا، للأسف لم أشاهده أبداً؟ . . . لماذا؟».

- «كنت أتساءل فقط، فأنا أعتقد أنه أحسن الأفلام التي قمت بتمثيلها».

ومع نبيذ (موتون روتشيلد) كانت هناك وجبة من لحم البقر المشوي: وقد طويت في عجينة خفيفة جداً فاحتفظت بذلك على عصارة اللحم بداخلها. كانت وجبة رائعة جداً ولكن منظر الدم الأحمر أثار اشمئزازي للحظة - فقد أعادني الى قاعدة مصعد التزلج. ثم قال الدكتور فيشر: «يجب ان تقطع اللحم للسيد جونز يا ألبرت! فيده اصطناعية».

قالت السيدة مونتغمري: «يا سيد جونز أيها المسكين، دعني أقوم بهذا

العمل. أتحبها قطعاً صغيرة؟».

قال الدكتور فيشر: «الشفقة، الشفقة دائماً، يجب ان تعيدي كتابة الانجيل. أشفق على جارك كما تفعل لنفسك. للنساء حس شفقة مبالغ فيه للغاية. وقد ورثت ابنتي هذا عن أمها. وبما تزوجتك بدافع الشفقة يا جونز. وأنا متأكد بأن السيدة مونتغمري ستقبل الزواج منك لو طلبت منها ذلك. ولكن الشفقة تزول بسرعة حالما يختفي المشفَق عليه».

فسأل دين: «وأية عاطفة لا تزول؟».

فأجابت السيدة مونتغمري برقة: «الحب».

فقال دين: «اما أنا فلم أستطع معاشرة المرأة ذاتها لمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر، لأن ذلك يصبح عملاً روتينياً».

ـ «إذاً فهذا ليس بالحب الحقيقي».

ـ «كم سنة بقيت متزوجة يا سيدة مونتغمري؟».

ـ «عشرين سنة».

قال الدكتور فيشر: «يجب ان اوضح لك أمراً يا دين. كان السيد مونتغمري رجلاً غنيا جدا، لذا فحساب مصرفي كبير يسند الحب فترة أطول. لماذا لا تأكل يا سيد جونز، ألا تجد اللحم طرياً بما يكفي أم ان السيدة مونتغمري لم تقطعه الى قطع صغيرة بما يكفي؟».

ـ «اللحم ممتاز. لكن ليس لدي الشهية للأكل» تناولت كأساً آخر من نبيذ موتون روتشيلد، وشربته لا لأتذوق طعم النبيذ، فحاسة ذوقي بدت لي ميتة، ولكن طمعاً في نسيان شعرت بأنه يدنو مني .

قال الدكتور فيشر: «في الحالات الاعتيادية يا سيد جونز، ستخسر هديتك ان لم تأكل، ولكن في حفلتنا هذه لن يخسر أحد هديته إلا بمشيئة يؤكدها بنفسه».

فسألت السيدة مونتغمري: «من يستطيع رفض احدى هداياك يا دكتور فيشر؟».

ـ «هذا ما سأوشك على اكتشافه في بضع دقائق وبتلهف عظيم».

ـ «انت تعلم ان هذا لن يحدث ابداً، أيها الرجل الكريم».

ـ «ان كلمة «أبداً» هي كلمة كبيرة. ولست متأكداً من أن هذه الليلة... إنك يا ألبرت تغفل عن الكؤوس فكأس السيد دين على وشك ان تفرغ. وكذلك الحال بالنسبة للسيد بيلمونت».

لم يشرح لنا مقاصده إلا بعد ان انتهينا من شرب (البورت): (هذه عادة انكليزية تتبع عند نهاية الوجبة حيث يقدم هذا الشراب مع جبنة (ستلتون) الشهيرة). وكالمعتاد فالسيدة مونتغمري هي التي تجبره على الحديث.

فقالت: «كم أنا متلهفة لأن أصل الى مفاجأة النخالة تلك».

فقال الدكتور فيشر: «انها مجرد مجموعة من المفرقعات. يا سيد كيبس! يجب ألا تستسلم للنوم حتى تفجر مفرقعاتك. وأنت يا دين تعترض طريق شراب (البورت) ابتعد عنه قليلاً، لا ليس من هذه الجهة، ما هي ثقافتك؟ ثقافة باتجاه دوران عقرب الساعة؟».

فقالت السيدة مونتغمري: «كيف تقول انها مجرد مفرقعات أيها الرجل المازح؟ فأنت أعلم بأن ما يهمنا هو ما تحتويه في داخلها».

ـ «انها ست مفرقعات وخمس منها تحتوي على قطع الورق نفسها».

فهتف السيد بيلمونت: «قطع من ورق؟» أما السيد كيبس فقد أدار رأسه حول محوره في اتجاه الدكتور فيشر.

فشرحت لهم السيدة مونتغمري: «انها شعارات، فجميع المفرقعات الجيدة تحوي شعارات».

فسأل بيلمونت: «ولكن، ماذا يوجد بالاضافة الى ذلك».

قال الدكتور فيشر: «لا توجد شعارات فهذه الأوراق مطبوعة باسم وعنوان معينين ـ المصرف السويسري في مدينة بيرن».

فسأل السيد كيبس: «ليست صكوكا بالتأكيد؟».

ـ «صكوك، يا سيد كيبس، وكل صك يحمل قيمة المبلغ ذاتها كي لا يشعر أحد منكم بالغيرة من الآخر».

ـ قال بيلمونت: «بالنسبة لي أنا لا أحب فكرة تداول الصكوك بين الاصدقاء، وبالطبع أنا أعلم ان نيتك طيبة يا دكتور فيشر، ولقد قدرنا جميعاً تلك الهدايا الصغيرة التي أعطيتها لنا في نهاية كل حفلة، ولكن مسألة الصكوك... انها تخل بكرامتنا، ناهيك عن الاشكالات المالية، ألا توافقني؟».

ـ «ان ما أفعله هنا هو انني أدفع اليكم قسطكم النهائي».
فقال ريتشارد دين: «يا للعنة، لسنا بمستخدمين عندك».

ـ «أمتأكد انت من كلامك هذا؟ ألم تقوموا جميعكم بتمثيل أدواركم لتسليتي ولمصلحتكم أيضاً؟ وأنت بالذات يا دين فأنت معتاد على تنفيذ الأوامر لذلك فلا تشعر باستغراب وأنت تتلقاها مني».

ـ «لست مجبراً على قبول صكوكك».
ـ «لست مجبراً بالفعل، ولكنك ستقبلها. وأنا متأكد بأنك مستعد لأن تمثل شخصية السيد دارلنج في مسرحية بيتربان وهو محجوز في بيت الكلاب، فيما لو كانت قيمة المبلغ تناسبك».
قال بيلمونت: «كان العشاء ممتازا وسنتذكره دائما بامتنان. ويجب ألا نفعل أكثر من اللازم. أنا أفهم ما قاله دين لكنني أعتقد بأنه يبالغ».
ـ «طبعاً، أنتم أحرار في رفض او قبول هداياي الوداعية الصغيرة، وسأخبر ألبرت بأن يذهب بحوض النخالة بعيدا. ألبرت! هل سمعتني؟ خذ حوض النخالة الى المطبخ ـ كلا، انتظر لحظة! قبل ان تقرروا اعتقد بأن عليكم معرفة ما هو مكتوب على قصاصات الورق تلك! كل واحدة تحمل مليوني فرنك».
فهتف بيلمونت: «مليونا فرنك!».

ـ «ان المكان المخصص لكتابة الاسم قد ترك فارغا وتستطيعون بذلك ملأه بأي اسم تريدون فربما يرغب السيد كيبس بمنح حصته لتمويل البحوث الطبية المختصة بعلاج انحراف العمود الفقري. أما السيدة مونتغمري فربما تريد شراء عشيق لنفسها. ودين يستطيع تمويل أحل أفلامه ولو جزئياً، فهو في خطر ان يصبح قريبا على ما أعتقد بما يسمونه في مهنته بـ «غير القابل للصرف)».

قالت السيدة مونتغمري: «يبدو لي أن هذا الأمر غير لائق، فهو يثبت بطريقة أو بأخرى بأنك تعتقد اننا أصدقاء جشعون».

- «ألم تثبت لك ذلك جوهرة الزمرد التي ترتدينها؟»

- «ان الأمر يختلف عندما يحصل المرء على جواهر من انسان يحبه، فأنت لا تعلم يا دكتور فيشر كم نحبك، ربما هذا حب أفلاطوني، ولكن هل التعبير الافلاطوني أقل صدقاً من . . . انت تعلم ما أقصده».

- «بالطبع، أنا أدرك بأن أياً منكم ليس في حاجة لأن يصرف مليوني فرنك لملذاته فكلكم أثرياء الى حد انكم تستطيعون إهداء هذا المال لغيركم - مع اني أشك بأنكم ستفعلون».

فقال بيلمونت: «ان عدم كتابة أسمائنا على الصكوك يهون الأمر بالتأكيد».

قال الدكتور فيشر: «ومن ناحية الضرائب، شعرت أن هذا أنسب. لكنك أعلم بهذه القضايا أكثر مني».

- «لم أكن أفكر في هذا، كنت أفكر في الكرامة الانسانية».

- «آه، نعم فهمت قصدك، فالمرء يشعر بإهانة أعظم لو تسلم صكاً قدره مليونا فرنك بدلا من صك قدره ألفا فرنك».

قال بيلمونت: «كنت سأعبر عن ذلك بأسلوب مختلف».

ولأول مرة نطق اللواء فقال: «لست مموَّلاً كالسيد كيبس او السيد بيلمونت فأنا مجرد جندي بسيط، لكنني لا أرى اي فرق بين قبول كافيار أو قبول صك».

قالت السيدة مونتغمري: «أحسنت يا لواء، كنت على وشك أن أقول الشيء ذاته بنفسي».

فأضاف السيد كيبس: «أنا لم اعترض. لقد كان سؤالاً فحسب».

قال بيلمونت: «وأنا كذلك، بما ان أسماءنا غير مكتوبة على الصكوك. . حاولت أن أكون منطقياً بما يناسبنا جميعاً - لا سيما ما يخص دين، فهو انكليزي، وهذا واجبي باعتباري خبير ضرائب».

فسأله دين: «أتنصحني بأن أقبل».

- «في هذه الظروف، نعم».

ـ «يمكنك أن تدع حوض النخالة في مكانه يا آلبرت» قال الدكتور فيشر.

فقال كيبس: «هناك أمر يتطلب التوضيح، أنت ذكرت بأن هناك ست مفرقعات وخمس أوراق، هل يعود ذلك الى أن السيد جونز لن يشاركنا؟».

ـ «للسيد جونز فرصة كل واحد منكم، فستذهبون بالتتابع الى حوض النخالة وتسحبون مفرقعاتكم، وستفجرونها قرب الحوض ثم تعودون الى المائدة هذا فيما لو عدتم».

فسأله دين: «ماذا تقصد بقولك (فيما لو)؟».

ـ «قبل أن أجيب على سؤالك ـ اقترح ان تتناولوا جميعاً كأساً آخر من (البورت) كلا. كلا. يا دين، أرجوك. قلت لك مسبقاً ـ ليس في اتجاه عقرب الساعة».

قالت السيدة مونتغمري: «أنت تثير اعصابنا وتفقدنا صبرنا».

قال دين: «لم تجب عن سؤال السيد كيبس، لماذا توجد خمس أوراق فقط؟».

قال الدكتور فيشر وهو يرفع كأسه: «أشرب نخبكم جميعاً. وحتى لو رفضتم سحب مفرقعاتكم فأنتم تستحقون العشاء وذلك لأنكم تساهمون جميعاً في الجزء الأخير من بحثي».

ـ «أي بحث؟».

ـ «بحثي في جشع الأغنياء».

ـ «أنا لا أفهم!».

قالت السيدة مونتغمري: «دكتور فيشر العزيز، هذه احدى نكاته الصغيرة، أشرب يا سيد دين!».

شرب الجميع، ووجدت بأنهم ثملوا الى حد غير قليل. وبدا لي بأنني الوحيد بينهم المحكوم عليه بكآبة الاعتدال في الشرب مهما افرطت فيه. تركت كأسي فارغة وقررت أن لا أشرب! المزيد حتى أصل الى بيتي لأكون وحدي فأشرب الى حد الموت لو رغبت في ذلك.

ـ «ان جونز لا يشرب نخبنا، لا بأس فقوانيننا غير صارمة الليلة. منذ فترة طويلة وأنا

أرغب في اختبار مدى جشعكم، لقد تحملتم قدرا كبيرا من الاهانة وقبلتم بذلك من أجل الجوائز التي تلت. لقد فاق جشعكم الحدود لأية إهانة يستطيع خيالي ابتداعها».

قالت السيدة مونتغمري:

- «لم يكن هناك أية إهانة أيها الرجل العزيز! كان ذلك روح مرحك الرائعة».

- «والآن، أريد أن أرى ان كان جشعكم سيتغلب على خوفكم - ولهذا قمت بتنظيم ما أسميه بـ (حفلة القنبلة)».

قال دين وقد أثر فيه الشراب وجعله عدائياً: «ماذا تقصد بحق الجحيم؟ ما هي حفلة القنبلة؟».

- «ان المفرقعة السادسة تحتوي على حشوة بندقية وقد تكون مميتة؛ وستنفجر هذه الحشوة باللحظة التي يقوم فيها أحد منكم بتفجير المفرقعة بسحب طرفيها، ولهذا السبب تجدون حوض النخالة على بعد جيد عن مائدتنا، كما ولهذا السبب فإن المفرقعات مدفونة في حوض النخالة المغطى بغطاء سميك تلافياً لسقوط شرارات من النيران في داخله. واسمحوا لي أن أضيف انه لا فائدة - وربما من الخطورة - أن تخشخشوا تلك المفرقعات. فكلها تحتوي على الحاوية الحديد نفسها، ولكن حاوية فقط من هذه الحاويات تتضمن ما أطلقت عليه اسم القنبلة. أما الحاويات الأخرى فتحتوي على الصكوك».

قالت لنا السيدة مونتغمري: «انه يمزح».

- «ربما! وستتأكدون في نهاية الحفلة ان كنت أمزح أم لا. ألا يستحق هذا المقامرة؟ وأؤكد لكم أن الموت ليس محتماً حتى لو اخترتم المفرقعة الخطرة، وأعطيكم كلمة شرف بأن الصكوك موجودة هناك فعلاً، وتحمل مليوني فرنك».

فقال بيلمونت وهو يغمز بسرعة: «ولكن لو مات أحد فسيكون ذلك جريمة».

- «كلا، لن تكون جريمة فأنتم جميعاً شهود على ما سيحدث؛ وهي كلعبة الروليت الروسية، ولا يمكن تسميتها حتى بالانتحار. أنا متأكد بأن السيد كيبس يوافقني. والذي لا يرغب في اللعب يستطيع ترك المائدة في الحال».

قال السيد كيبس: «انا لن ألعب بالتأكيد». ثم جال بنظره يبحث عن مؤيد له

لكنه لم يجده. «وأنا أرفض ان أكون شاهداً على أمر كهذا، ستكون هناك فضيحة كبرى يا دكتور فيشر، هذا أقل ما يمكن ان تتوقعه».

قام عن المائدة وخطا بعيدا بظهره المنحني من بين النيران باتجاه البيت، ومرة أخرى كان الرجل يشبه رقم (7) أسود صغيراً. وبدا لي غريبا ان رجلا معاقا الى هذا الحد يكون أول من يرفض المجازفة بالموت. قال له الدكتور فيشر وهو يتعدانا: «لك فرصة واحدة لصالحك من بين خمس فرص».

قال السيد كيبس: «لم أقامر قط من أجل المال، فأنا اعتبره أمراً غير أخلاقي للغاية».

وبطريقة غريبة، بدا لي ان كلماته خففت من حدة الأجواء. وقال اللواء: «أنا لا أجد في المقامرة ما ينافي الأخلاق فقد أمضيت بدوري أسابيع سعيدة في مونت كارلو حيث ربحت مرة ثلاث لعبات على التوالي، بالرقم ١٩».

قال بيلمونت: «لقد ذهبت عدة مرات عبر البحيرة الى ناد ليلي في ايفان، فلم أحصل على مبالغ طائلة بالطبع، ولكنني بأي حال من الأحوال لست متزمتاً في هذه الأمور». وتكلموا وكأنهم قد نسوا موضوع القنبلة تماماً. وربما كنت أنا والسيد كيبس الوحيدين اللذين صدقا بأن ما قاله الدكتور فيشر كان حقيقة.

فقالت السيدة مونتغمري: «لقد حمل السيد كيبس كلامك على محمل الجد، انه لا يملك روح الفكاهة».

فسأل بيلمونت: «وماذا سيحل بصك السيد كيبس عندما تترك مفرقعته جانباً».

ـ «سأقسمه بينكم إلا إذا كانت تحتوي على حشوة البندقية طبعاً. ولا أعتقد أنكم تريدون أن أقسم ذلك بينكم».

فعدها بيلمونت بسرعة قائلاً: «سيحصل كل منا على اربعمئة ألف فرنك اضافية».

ـ «كلا أكثر من ذلك. فواحد منكم ربما لن يسلم». فهتف دين الذي فاق سكره الحد الذي يستطيع فيه تصديق قصة المفرقعة المتفجرة، وقال: «لن يسلم!».

قال الدكتور فيشر: «بالطبع، قد ينتهي كل شيء على خير وبنهاية سعيدة وقد

تكون المفرقعة السادسة الباقية هي تلك الأخيرة التي تحتوي على القنبلة».

- «هل تقول بجد أن هناك قنبلة لعينة في احدى تلك المفرقعات».

فتمتمت السيدة مونتغمري: «مليونان وخمسمائة ألف فرنك» - كان واضحاً انها قد صححت حسابات السيد بيلمونت وكانت بالتأكيد تحلم بما وصفه الدكتور فيشر بنهاية سعيدة.

- «أما أنت يا دين فأنا واثق من أنك لن ترفض هذه المقامرة الصغيرة، فأنا أذكر كيف تبرعت في فلم (سواحل دنكرك) بكل شجاعة للقيام بمهمة انتحارية، كنت رائعاً، او في الأقل كان إخراج تمثيلك رائعا. كنت على وشك ان تربح جائزة أوسكار أليس كذلك؟ والنص الذي قلته: «سأذهب يا سيدي، ان سمح لي، أن أذهب بمفردي» سأتذكر هذا السطر العظيم دائما. من كتبه؟».

- «كتبته بنفسي، لم يكتبه كاتب النصوص ولا المخرج. فقد جاءني الوحي هكذا فجأة وأنا وسط التمثيل».

- «تهانينا يا ولدي. والآن جاءتك الفرصة الكبرى لأن تذهب الى حوض النخالة بمفردك».

لم أتوقع أن يذهب دين بالفعل، وقف ثم شرب الـ (بورت) جرعة واحدة، فاعتقدت انه ذاهب ليلحق بالسيد كيبس. ولكن، ربما بسبب ثمله كان يعتقد فعلاً بأنه في وسط التمثيل وفي (دنكرك) خيالية. لمس جانب رأسه وكأنه يضبط بيريته العسكرية التي لا توجد أصلاً، وبينما كان يفكر في دوره القديم هذا، همت السيدة مونتغمري للتصرف: تركت المائدة وركضت عبر الثلج حتى حوض النخالة وهي تصرخ: «السيدات أولاً». ثم أطاحت بالغطاء بعيدا وغرست يدها في النخالة. فربما اعتقدت أن أفضلية السحب لن تكون احسن من هذه الفرصة.

وكان بيلمونت يفكر بالشيء ذاته، فاعترض قائلاً: «كان يجب ان نقوم بالسحب حسب الدور».

وجدت السيدة مونتغمري مفرقعتها فسحبت طرفيها. صدرت قرقعة صغيرة وسقطت اسطوانة حديدية على الثلج، فأخرجت منها لفة ورقية واطلقت صرخة انفعال فسألها الدكتور فيشر: «هل هناك خطأ ما؟».

ـ «لا يوجد خطأ أيها الرجل العزيز، كل شيء جيد ورائع. المصرف السويسري. بيرن، مليونا فرنك». ثم ركضت الى المائدة وقالت:

«ليعطني أحدكم قلماً، أريد كتابة اسمي فقد يضيع الصك مني». قال لها بيلمونت: «أنصحك بألا تكتبي اسمك حتى نعيد النظر في الأمور بصورة جيدة». ولكنه كان كمن يكلم امرأة صماء. أما ريتشارد دين فقد وقف بثبات واهتمام، فظننت بأنه سيحيي زعيمه في أية لحظة، فلا بد انه كان في خياله يستمع الى الأوامر الأخيرة التي صدرت اليه، وفي هذه الأثناء تمكن بيلمونت من الوصول الى حوض النخالة قبله. تردد قليلاً قبل أن يسحب مفرقعته: ولكن عندما سقطت الاسطوانة نفسها؛ وفي داخلها الورقة ذاتها، ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا عن نفسه وغمز بعينه، لقد كان يحسب فرص الأفضلية وهكذا اصاب في رهانه، كان رجلاً يعرف كل شيء يتعلق بالمال.

قال دين: «سأذهب يا سيدي، ان سمحت لي، سأذهب بمفردي». ومع ذلك فهو لم يذهب. ربما كان المخرج قد أمر بإيقاف التمثيل في تلك اللحظة.

قال الدكتور فيشر: «وماذا عنك يا جونز ـ ان الفرص للسحبة الجيدة تتضاءل».

ـ «أفضل مشاهدة تجربتك اللعينة حتى نهايتها، فالجشع ينتشر أليس كذلك؟».

ـ «ان كنت ستشاهد فعليك الاشتراك باللعبة، وإلا فغادر مثلما فعل السيد كيبس».

ـ «أوه أنا سألعب، أعدك بذلك. سأراهن على المفرقعة الأخيرة، فهذا يعطي فرصة أفضل للواء».

قال الدكتور فيشر: «أنت رجل أحمق ومضجر فلا مكسب لك في اختيار نوع الموت ان كنت تريده فعلاً. ماذا يفعل دين بحق السماء؟».

ـ «اعتقد انه يرتجل».

كان دين واقفا بجانب المائدة يصب لنفسه كأسا أخرى من الـ(البورت)، ولكن هذه المرة لم يستغل أحد تأخيره فلم يبق إلا اللواء وأنا.

قال دين: «شكراً يا سيدي. فكرة طيبة منك. ان الشجاعة الهولندية لم تؤذ

أحداً ـ وهو أمر غير ضروري في حالتك يا قائدي، أعلم ذلك ـ شكراً يا سيدي. ولكن كلما كان الأمر غير ضروري كان طعمه أفضل ـ وان عدت سالماً فستقاسم قارورة أخرى من شراب كوبرن مثل هذه، أرجو ذلك يا سيدي».

فتساءلت ان كان سيهذي بهذا الحوار حتى الفجر، ولكنه وضع كأسه على المائدة عندما قال جملته الأخيرة، ثم قام بتحية متكلفة الأناقة وخطا نحو حوض النخالة، وتحسس داخله حتى امسك بمفرقعة فسحب أطرافها وسقط هو على الأرض بجانب الاسطوانة والصك. قال الدكتور فيشر: «انه ثمل تماما» ثم امر البستانيين بحمله الى المنزل. نظر الي اللواء من طرف المائدة الآخر وسألني: «لماذا بقيت يا سيد جونز؟».

ـ «لا يوجد لدي شيء أفضل أفعله يا جنرال».

ـ «لا تدعني بالجنرال، لست بجنرال، أنا لواء».

ـ «لماذا بقيت أنت يا لواء؟».

ـ «لقد فات الأوان لأن انسحب الآن، لا أملك الشجاعة لذلك. كان يجب أن أكون أول من يذهب إلى الحوض، عندما كانت الفرص أفضل. ماذا كان يقول هذا الرجل دين؟».

ـ «اعتقد أنه كان يمثل دور قائد يتبرع للقيام بمهمة يائسة».

ـ «أنا لواء، واللواء لا يقوم بمهمات يائسة، وعلى كل حال فلا توجد مهمات يائسة في سويسرا، إلا اذا كانت هذه حالة خاصة، هل تذهب قبلي يا جونز؟».

ثم سمعت السيدة مونتغمري وهي تسأل بيلمونت: «ما رأيك بكفالة قابلة للتحويل».

قال بيلمنت: «لديك منها الكثير حتى الآن، وأعتقد ان استعادة الدولار لقيمته سيأخذ وقتاً طويلاً».

ـ «أقترح أن تذهب أولاً يا لواء. لست بحاجة للمال كما أن ذلك يعطيك فرصة أفضل، أما أنا فأبتغي شيئا آخر».

قال اللواء: «عندما كنت صبيا، كنت ألعب لعبة الروليت الروسية بمسدس،

كان ذلك ممتعا للغاية». ومع ذلك فلم يحرك ساكنا.

سمعت بيلمونت يقول للسيدة مونتغمري: «أنا بدوري أفكر في الاستثمار في المانيا، فمثلا شركة (بادنفرك من كارسلوه) يدفعون ثمانية وخمسة اثمان بالمائة ـ ولكن هناك الخوف من روسيا، أليس كذلك؟ يا له من مستقبل لا يمكن التنبؤ به».

وعندما رأيت عدم رغبة اللواء في التحرك تحركت أنا. أردت أن أضع نهاية لهذه الحفلة، اضطررت الى ازالة الكثير من النخالة حتى وجدت المفرقعة، وعكس شعور الطفل الذي يلعب بالمسدس فأنا لم أشعر بأي انفعال ـ فقط احساس هادىء عندما لمست المفرقعة بأنني قريب من آنا ـ لويز، أكثر قرباً مما كنت في تلك اللحظة، كان الشعور بالقرب منها هو أكثر من تلك في غرفة المستشفى عندما دخل علي الطبيب ليقول لي بأنها ماتت. حملت المفرقعة وكأنني كنت أمسك يدها، واستمعت الى الحديث عند المائدة.

قال بيلمونت للسيدة مونتغمري: «عندي ثقة أكثر باليابانيين، فشركة (ميتسوبيشي) تدفع ستة وثلاثة أرباع فقط، ولكن الأمر لا يستحق أن نجازف بمليونين».

ووجدت أن اللواء كان إلى صفي. قالت السيدة مونتغمري:

ـ «اعتقد بأن علينا المغادرة، فأنا أحس بأن شيئا ما سيحدث الآن، بالرغم من انني في أعماق أعماقي أشعر بأن الدكتور فيشر كان يمزح معنا فقط».

ـ «ان كنت ترغبين في صرف سيارتك وسائقها، استطيع ان اقلك بسيارتي ونستطيع مناقشة مشروع استثمارك في الطريق».

فسأل الدكتور فيشر: «ستبقون حتى نهاية الحفلة بالتأكيد، ولن تتأخر الى أكثر من هذا الآن».

ـ «أوه، لقد كانت أمسية رائعة ولكن الوقت يتأخر بالنسبة لي» ثم لوحت بيدها الينا بيدها كأنها تصفق بجناح، قائلة: «تصبح على خير يا جنرال، تصبح على خير يا سيد جونز. أين السيد دين؟».

ـ «اعتقد انه مستلق على أرض المطبخ. أرجو ان لا يأخذ آلبرت الصك منه، فهذا سيجعله يستقيل بالتأكيد وبهذا سأخسر خادماً جيداً».

قال لي اللواء هامساً: «في وسعنا ان نتركه ونغادر طبعاً، أتأتي معي فأنا لا أريد الذهاب بمفردي».

- «في حالتي لا أجد مكانا أذهب إليه».

ورغم أنه كان يهمس فقد سمعه الدكتور فيشر فقال له:

- «كنت تعرف شروط اللعبة يا لواء، وكان في إمكانك أن تغادر قبل بدء اللعبة مثلما فعل السيد كيبس. والآن وقد قلّت فرص السحب الجيدة فقد بدأت تخاف، يجب ان تفكر بشرف كونك جنديا اضافة الى تفكيرك بالجائزة، ولا يزال هناك مليونا فرنك في ذلك الحوض».

ولكن اللواء أبى أن يتحرك ونظر الي يستنجد بي بتلك النظرة نفسها. فالمرء عندما يكون خائفاً يحتاج الى الصحبة. وأستمر الدكتور فيشر في كلامه بدون رحمة:

- «ان تصرفت سريعاً فالفرصة ستكون لصالحك بنسبة أثنين الى واحد».

أغلق اللواء عينيه ووجد مفرقعته حالما ادخل يده في الحوض ولكنه ظل واقفاً هناك متردداً.

- «عد الى المائدة يا لواء، ان كنت خائفاً أن تسحب واعط الفرصة للسيد جونز».

كان اللواء ينظر إلي مثل الكلب الأسباني ذي العينين المحزنتين اللتين تنومان صاحبه مغناطيسياً فتجبره على أن يتفوه لكلبه بالكلمة السحرية «امش». ثم قلت: «لقد سبقتك بسحب مفرقعتي فأظن بأنك يجب أن تسمح لي بسحب طرفيها وتفجيرها قبلك». قال: «بالطبع، فهذا حقك».

راقبته حتى عاد الى مسافة قريبة من المائدة وهو يحمل مفرقعته معه ووجدت صعوبة في سحب طرفي المفرقعة بسبب يدي اليسرى المبتورة. علمت أن اللواء يراقب ترددي، كان يراقبني بأمل، ربما كان يصلي، وقد رأيته يصلي في قداس منتصف الليل، وربما يكون مؤمناً، وربما كان يدعو ربه قائلاً: «أيها المسيح الكريم، أرجوك أنسفه». وربما كنت سأذكر دعاء مشابهاً له بقولي: «ضع نهاية لكل هذا»، لو كنت مؤمناً ولكنني لم أكن حتى نصف مؤمن. ولكن لماذا كنت اشعر بقرب من آنا-لويز والمفرقعة في يدي؟ لقد ماتت آنا-لويز. ولن تحيا حياة أخرى في مكان آخر الا إذا كان الله موجوداً بالفعل. أطبقت بأسناني على الشريط الورقي الناتيء لتفجير المفرقعة،

وبيدي قمت بسحب الطرف الآخر. صدرت قرقعة ضعيفة وشعرت أن آنا ـ لويز قد سحبت يدها من يدي ومشت مبتعدة عني من بين النيران متجهة نحو البحيرة لتموت مرة أخرى.

فقال الدكتور فيشر: «والآن يا لواء. لقد تعادلت الفرص». لم اكره الدكتور فيشر من قبل بقدر ما كرهته في تلك اللحظة. فقد كان يسخر منا. يسخر من خيبة أملي ويسخر من خوف اللواء.

ـ «وأخيراً، فأنت تواجه نيران الأعداء يا لواء، ألم تحلم بذلك طوال السنوات الطويلة من الحياد السويسري؟»

سمعت صوت اللواء الحزين بينما كنت أحدق في المفرقعة الميتة عديمة الفائدة في يدي.

ـ «كنت شاباً في ذلك الحين، أما الآن فأنا كهل».

ـ «ولكن مليونا فرنك؟ أنا أعرفك منذ فترة طويلة يا لواء، وأعرف كم تقدر المال، فأنت تزوجت المال، بالتأكيد لم تتزوج الجمال، ولكن حتى عندما ماتت زوجتك وتركت لك كل ما تملك، لم يرضك ذلك، وإلا ما كنت لتحضر حفلاتي. وها هي فرصتك. لك مليونا فرنك مقابل أن تبدي قليلاً من الشجاعة.. الشجاعة العسكرية، لمواجهة النيران يا لواء».

نظرت عبر الأعشاب صوب المائدة ووجدت اللواء الكهل وقد كان على وشك ان يبكي. وضعت يدي في حوض النخالة وأخرجت المفرقعة الأخيرة، تلك التي كانت ستكون من حصة السيد كيبس، فقمت بعملية السحب مرة أخرى فصدر الصوت الضعيف نفسه الذي لم يتعد عود ثقاب وهو يقدح.

قال الدكتور فيشر: «يا لك من أبله يا جونز. لماذا العجلة! لقد ضايقتني طوال الامسية بحضورك الذي لا يكاد يذكر. لست مثل الآخرين. لست في الصورة. لن تساعد في شيء ولن تثبت شيئا. أنت لا تريد المال. أنت تطمع في الموت فقط، لست مهتماً بهذا النوع من الجشع».

قال اللواء: «ولكن لم تبق سوى مفرقعتي».

ـ «نعم يا لواء، والآن جاء دورك دون شك، وليس بإمكانك التهرب. عليك أن تستمر باللعبة حتى نهايتها، قم واذهب الى مسافة أمينة عنا، فعلى خلاف جونز، أنا

لا أريد أن أموت». ولكن الرجل الكهل لم يبد حراكاً.

- «لا أستطيع أن أرميك بالرصاص بسبب جبنك في وجه الاعداء، ولكن أعدك بأن هذه القصة ستدور في جنيف كلها».

أخرجت الصكين من الاسطوانتين وعدت بهما الى المائدة ورميت أحد الصكوك لفيشر قائلاً: «هذه حصة السيد كيس لتقسيمها بين الآخرين».

- «هل ستحتفظ بالآخر؟»

- «نعم».

فابتسم لي إحدى ابتساماته الخطيرة قائلاً:

- «على كل حال يا جونز لدي آمال بتثبيتك في الصورة. اجلس وتناول كأسا أخرى بينما يستجمع اللواء شجاعته. فأنت ثري الآن، نسبياً، في نظرك أنت في الأقل. اسحب المبلغ من المصرف غدا وخبئه جيدا، وبعد فترة وجيزة ستشعر مثلما يشعر الباقون، وربما عدت الى اقامة الحفلات من جديد، فقط لاراقب جشعك وهو ينمو. أما السيد مونتغمري، وبيلمونت، وكيبس، ودين فهم الآن مثلما كانوا عليه سابقاً عندما تعرفت اليهم للمرة الأولى. أما أنت فسأكون قد خلقتك بنفسي، مثلما خلق الله آدم. يا لواء، لقد انتهى وقتك، فلا تجعلنا ننتظر أكثر من ذلك، لقد انتهت الحفلة، والنيران تنطفىء، والطقس يبرد، وقد حان الوقت لأن يقوم البرت بتنظيف المائدة».

جلس اللواء بصمت ورأسه الكهل منحن فوق المفرقعة على المائدة. ففكرت: أنه يبكي حقاً (فقد رأيت عينيه)، كان يبكي حلم البطولة الزائل الذي يرافق كل جندي في منامه على ما أعتقد.

- «كن رجلاً يا لواء».

فقلت للدكتور فيشر: «ترى كم تكره نفسك!» ولا أعلم ما دعاني إلى قول تلك الكلمات، فكأن أحداً قد همسها في أذني لأوصلها اليه بدوري، ثم دفعت بالصك عبر المائدة باتجاه اللواء. وقلت: «سأشتري مفرقعتك لقاء مليوني فرنك. أعطني إياها».

- «كلا. كلا.» قالها بصوت يكاد لا يسمع، لكنه لم يقاومني عندما سحبت المفرقعة من بين أصابعه.

ـ «ماذا تقصد بهذا يا جونز؟»

لم أهتم بالرد على الدكتور فيشر ـ فقد كان لدي عمل أهم أقوم به، وعلى كل حال فلم يكن لدي ما اجيبه به. فالجواب لم يهمس في أذني من قبل ذلك الذي همس لي بالكلمات.

ـ «قف مكانك ايها اللعين وقل لي بحق السماء ماذا تقصد».

كنت أسعد جداً من أن أرد عليه فقد كانت مفرقعة اللواء بين أصابعي فمشيت مبتعداً عن المائدة ونزلت منحدر المرجة نحو البحيرة، في الاتجاه الذي تخيلت أن آنا ـ لويز تسير فيه. أخفى اللواء وجهه بين يديه عندما مررت بحذائه؛ ذهب البستانيان وخمدت النيران. فصاح الدكتور فيشر: «عد الى هنا، عد الى هنا يا جونز، أريد أن أكلمك».

فكرت مع نفسي: عندما يصل الامر الى هذا الحد فهو يخاف أيضاً. أعتقد أنه يريد تلافي وقوع فضيحة. لكنني لم أنو مساعدته في تجنبها، فهذا الموت يعود إلي أنا، كان إبني، إبني الوحيد، وأبن آنا ـ لويز أيضاً. ولن تقوم حادثة التزلج بسرقتنا معا من الطفل الذي كنت أحمله بين يدي. لم أعد أشعر بالوحدة، كانوا هم الذين يشعرون بها. فقد كان اللواء والدكتور فيشر يجلسان متقابلين، كل في طرف المائدة وكانا ينتظران ساعة موتي.

مشيت نازلا المنحدر حتى حافة البحيرة حيث سأختفي عن أنظارهما وراء منحدر المرجة، وللمرة الأخيرة. ولكن هذه المرة تصرفت بكل ثقة: أطبقت بأسناني على الشريط الورقي وسحبت المفرقعة بيدي اليمنى.

الفرقعة الضئيلة التافهة التي صدرت والصمت الذي تلا أثبتا لي حجم الخديعة التي تعرضت لها. لقد سرق الدكتور فيشر موتي مني وأهان اللواء: لقد أثبت وجهة نظره فيما يتعلق بجشع اصدقائه الاثرياء، وكان جالساً عند المائدة يضحك منا نحن الاثنين. وبالتأكيد فقد كانت تلك هي الحفلة الأخيرة الجيدة بالنسبة له.

لم تصلني ضحكاته لبعد المسافة بيننا، لكنني سمعت صوت وقع أقدام خافتة على الثلج وهي تسير على حافة البحيرة، وتوقف صاحب تلك الخطوات فجأة عندما رآني، وميزت بدلة سوداء تتباين مع بياض الثلج. فسألته: «من أنت؟».

فقال الصوت: «ألست السيد جونز؟ أنت بالتأكيد السيد جونز!»

- «نعم».
- «لقد نسيتني، أنا ستينر».
- «ماذا أتى بك الى هنا؟».
- «لم أعد أحتمل الوضع».
- «أي وضع؟»
- «ما فعله بها».

كان بالي مشغولا في تلك اللحظة ولم أفهم ما كان يقصده ثم قلت:

- «ليس في وسعك ان تفعل شيئاً الآن».

قال: «سمعت خبر زوجتك. أنا متأسف جدا. لقد كانت تشبه آنا جدا، وعندما سمعت انها ماتت شعرت وكأن آنا تموت من جديد، أعذرني فأنا أتكلم كأخرق».

- «كلا أنا افهم شعورك».
- «أين هو؟»
- «ان كنت تقصد الدكتور فيشر، فقد كان يطلق احسن وآخر نكاته، واعتقد انه جالس هناك يضحك مع نفسه».
- «علي الذهاب اليه ورؤيته».
- «ولماذا؟»
- «عندما كنت في المستشفى كان عندي متسع من الوقت للتفكير. وما دعاني للتفكير هو لقائي بزوجتك. فعندما رأيتها في المحل ظهر لي ان آنا قد عادت للحياة، لقد كنت أخضع للكثير من الامور في ذلك الزمن - كان يملك نفوذا كبيرا - لقد ابتدع دنتوفيل بوكيه - كان يملك نفوذاً كبيراً - لقد ابتدع دنتوفيل بوكيه - كان يشبه الإله - كان بوسعه طردي من عملي، وحتى كان بوسعه أن يأخذ موزارت مني. لم أرغب في الاستماع الى موزارت بعد أن ماتت. يجب ان تفهمني، أرجوك! من أجلها إفهمني. لم نكن عاشقين بالمعنى الصحيح ابداً ولكنه حول البراءة الى قذارة، والآن أريد أن أقترب منه بما يكفي لأن ابصق في وجه هذا المتأله القوي».
- «لقد فات الاوان لان تفعل ذلك، أليس كذلك؟»
- «لا يفوت الاوان ابداً لان يبصق المرء في وجه هذا المتأله الجبار لانه يبقى الى أبد الآبدين، آمين. وهو الذي جعلنا ما نحن عليه الآن.»
- «ربما يفعل بنا الرب الحقيقي هكذا، ولكن ليس الدكتور فيشر».

- «بل هو الذي جعلني ما أنا عليه الآن».

قلت: «اوه». لقد فقدت صبري مع هذا الرجل الصغير الذي نغص علي وحدتي - فقلت له: «اذهب الى هناك وابصق عليه، فقد يريحك هذا الامر جدا».

جال بنظره مبتعدا عني نحو منحدر المرجة التي لم نعد نميزها الآن فقد خبا ضوء النيـران، ولكن لم يكن يحتاج السيـد ستينر لان يتسلق ذلـك المنحدر ليبحث عن الدكتور فيشر، فقد جاء الدكتور فيشر الينا؛ كان ينزل ببطء وبجدية، ينظر الى قدميه اللتين كانتا تتزحلقان بين فترة واخرى على بقعة متجلدة.

- «ها هو آت، يجب ان تحضر بصقتك».

وقفنا هناك بانتظاره وبدت لنا المدة التي استغرقها في الوصول الينا غير منتهية. وقف على بعد عدة اقدام وقال لي: «لم اكن اعرف انك هنا، اعتقدت بأنك قد تكون غادرت في هذه الساعة، لقد ذهب الجميع، وذهب اللواء».

- «اخذ الصك معه».
- «بالطبع اخذه» ثم نـظر الى رفيقي في الظلام قـائلا: «لست بمفـردك. من هذا الرجل؟»
- «اسمه ستينر».
- «ستينر؟» لم أر الدكتور فيشر في ضياع مثل هذا، وكأنه كان قد ترك نصف عقله على المائدة قبل تركها. وبدا لي انه ينظر باتجاهي طالبا مساندتي، لكنني لم أعـطه أية مساندة.
- «من هو ستينر، وماذا يفعل هناك؟» بدا لي وكأنه يبحث عن شيء لم يضعه في مكانه الصحيح، وكان كالذي يقلب أدوات في دُرج تعم فيه الفوضى باحثا عن دفـتر صكوك او جواز سفر مثلا.

قال السيد ستينر:

- «كنت اعرف زوجتك. لقد امرت السيد كيبس بفصلي، لقد دمرت حياتنا».

بعد ان تكلم، وقفنا نحن الثلاثة هناك في صمت الظلام والثلج أمامنا، وكأننا ننتظر وقوع شيء، ولكن لم يعرف احد منـا ما هو ذلك الشيء: ملاحظة ساخرة؟ كلمة؟ ام مغادرة بكل بساطة. لقد كانت تلك اللحظة المناسبة ليقوم السيد ستينر

بفعلٍ ما، ولكنه لم يفعل شيئاً. ربما كان يعلم ان بصقته لن تصل بسبب بعد المسافة. اخيراً قلت:

- «حققت حفلتك نجاحاً عظيماً».

- «حقاً؟»

- «تمكنت من إهانتنا جميعاً. ما هي الخطوة التالية؟»

- «لا أعلم».

ومرة اخرى شعرت انه ينظر إلي طالباً مساندتي، قال:

- «لقد قلت شيئا لتوك. . . » كان امرا لا يصدق، فالدكتور فيشر العظيم من جنيف، ينظر الى آلفرد جونز ليذكره بشيء ما - ما هو؟

- «لا بد انك ضحكت كثيرا عندما اتيت بالمفرقعة الاخيرة، فقد كنت تعلم بان كل الذي سأحصل عليه هو قرقعة ضئيلة عندما سحبت طرفها».

فقال: «لم اقصد أن أهينك انت بالذات».

- «لقد كان ربحاً اضافيا لك اليس كذلك؟».

فقال: «لم اخطط للموضوع بهذه الطريقة فلست واحدا منهم». ثم تمتم بأسمائهم وكأنهم صف من (الضفادع): كيبس، دين، السيدة مونتغمري، اللواء، بيلمونت، اضافة الى الاثنين اللذين ماتا».

قال السيد ستينر: «انت قتلت زوجتك».

- «لم اقتلها».

- «كانت تريد الموت لانها لم ترغب في الحياة، دون حب».

- «حب؟ انا لا اقرأ روايات الحب يا ستينر».

- لكنك تحب المال اليس كذلك؟».

- «كلا، سيخبرك جونز كيف انني أعطيتهم اكثر مالي الليلة».

- «ما الذي ستعيش من أجله الآن يا فيشر؟» سألته «لا اظن ان احدا من أصدقائك سيعود مرة اخرى».

قال الدكتور فيشر: «هل انت متأكد بأنني أريد ان أعيش؟ هل تريد انت ان

تعيش؟ لم يبد لي ذلك عندما رأيتك تأخذ تلك المفرقعات. هل ـ ما اسمه ـ ستينر يريد ان يعيش؟ نعم، ربما تريدان انتما ذلك. وربما، عندما يصل الامر الى هذا الحد قد اميل بدوري الى فكرة العيش ايضا. والا ـ ماذا افعل واقفا هنا؟».

قلت له: «على كل حال لقد استمتعت بوقتك الليلة».

ـ «نعم، كان ذلك افضل من لا شيء. فاللاشيء أمر مخيف يا جونز».

قلت: «لقد كان انتقامك غريبا».

ـ «اي انتقام؟».

ـ «لقد صببت حقدك على العالم بأسره، بسبب احتقار امراة واحدة لك».

ـ «لم تحتقرني ربما كانت تكرهني، لن يقدر احد على احتقاري يا جونز».

ـ «الا انت نفسك».

ـ «نعم ـ تذكرت الان ما قلته انت».

ـ «وهو صحيح. أليس كذلك؟».

قال: «كان دخولك الى حياتي يا سيد ستينر وكأنني قد اصبت بمرض عضال، كان يجب ان اطلب من كيبس ان يضاعف لك راتبك وان اقدم لأنا كل اسطوانات موزارت التي كانت ترغب فيها. كان ممكنا ان اشتريكما انتما الاثنين مثلما اشتريت الباقين ـ الا انت يا جونز، لقد فات الاوان لأن اشتريك. ما الساعة الان؟».

قلت: «بعد منتصف الليل».

ـ «حان وقت النوم».

وقف للحظة متأملا ثم انطلق مبتعدا ولكن ليس في اتجاه المنزل. استمر في مسيره البطيء عبر المرجة بمحاذاة البحيرة، حتى اختفى عن الانظار والأسماع في صمت الثلج. وحتى مياه البحيرة لم تكسر هذا الصمت، فلم يكن هناك مد ليرتطم بالشاطىء في الأسفل قربنا.

قال ستينر: «يا للرجل المسكين».

ـ «انت رؤوف جدا يا سيد ستينر. اما انا فلم أكره رجلا بقدر ما اكرهه».

ـ «انت تكرهه واعتقد بأنني اكرهه ايضا، ولكن الكراهية ليست مهمة فالكراهية غير

معدية، انها لا تنتشر، فالمرء يستطيع ان يكره ويترك الامر الى هذا الحد. ولكن عندما تبدأ بالاحتقار مثلما يفعل الدكتور فيشر فسينتهي بك الامر الى احتقار الدنيا كلها».

- «اتمنى لو قمت بتنفيذ خطتك وبصقت في وجهه».

- «لم استطع. فعندما وصلت الى تلك اللحظة - عدت واشفقت عليه».

كم تمنيت وجود الدكتور فيشر بيننا ليسمع كم هو مُشفَق عليه من قبل ستينر. ثم قلت له: «يجب الا نظل واقفين فالطقس بارد وقد يؤدي الى موتنا».

ثم فكرت: ألم يكن هذا ما كنت أريده؟ لو بقيت مدة كافية لحصل ذلك. ثم شق صوت حاد تفكيري وقسمه الى قسمين.

قال ستينر: «ما هذا؟ صوت وقود السيارة وهو يشتعل؟».

- «لا يمكن. فالشارع بعيد جدا عنا».

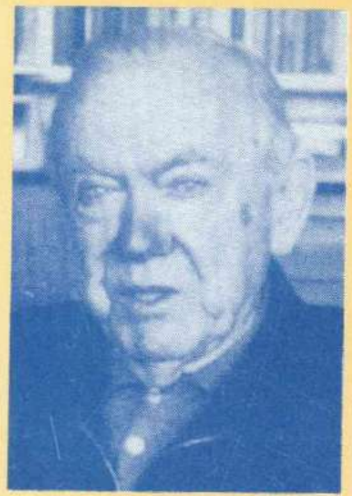
لم يأخذ اكتشاف الامر سوى مائة ياردة حتى وصلنا الى جثة الدكتور فيشر، والمسدس، الذي كان يحمله في جيبه دون شك، ملقى على الارض بجانب رأسه، وقد شرع الثلج بامتصاص الدماء. مددت يدي لالتقط المسدس لعله يفيدني - انا ايضا - حين يأتي دوري، ولكن السيد ستينر منعني. وقال: «اترك الامر للشرطة». نظرت الى الجثة فلم اجد فيها اية علامة للحياة وكأنها كلب ميت. وفكرت مع نفسي: كان هذا جزءاً من الهراء الذي قارنت به مرةً في فكري بين الاله والشيطان.

(١٧)

ان الحقيقة التي دعتني الى كتابة هذه الرواية، تثبت بوضوح أنني، على عكس الدكتور فيشر، لم اجد الشجاعة الكافية لقتل نفسي؛ وتلك الليلة لم اكن بحاجة الى شجاعة فقد كفاني ما انا فيه من أسى، ولكن منذ ان اظهر التحقيق ان المسدس لم يكن يحوي سوى رصاصة واحدة، فإن هذا لم يكن ليفيدني، حتى ولو لم ياخذ السيد ستينر ذلك السلاح. ان الشجاعة يصيبها الوهن يوما بعد يوم بفعل الروتين الممل، والأسى بدوره يعتمد جدا على حياتنا اليومية، الى حد ان الرغبة في الموت تفقد قيمتها مع الوقت. كانت آنا ـ لويز قريبة مني عندما كنت ممسكا بقدح الوسكي وكذلك عندما سحبت المفرقعة مطبقا عليها بأسناني، اما الان فقد فقدت كل امل في ان اراها مرة اخرى في اي مستقبل. فقط لو أنني كنت اؤمن بإله لحلمت اننا سنلتقي ثانية في (اليوم الاطول). وبدا لي ان نصف ايماني ذبل بمجرد رؤيتي جثة الدكتور فيشر. كان الشر ميتاً ككلب، فلماذا على الخير أن يكون أكثر اخلاقية من الشر؟ لم يبق سبب يدفعني الى اتباع آنا ـ لويز ان كنت ساتبعها في اللاشيء. كنت املك صورتين فوتوغرافيتين لها، وورقة عليها كتابة بخط يدها تحدد فيها موعدا لنا قبل ان نبدأ بالعيش معا. كما بقي عندي المقعد الذي كانت تجلس عليه، والمطبخ الذي طقطقت فيه الصحون قبل ان نشتري ماكنة لغسلها. كانت كل تلك الاشياء كرفات العظام التي تحتفظ بها الكنائس الرومانية الكاثوليكية. وفي احدى المرات عندما كنت اسلق بيضة لأتعشى بها، وجدت نفسي اردد جملة كنت قد سمعتها من قسيس في قداس منتصف الليل: (كلما قمت بهذه الافعال، مهما تكررت، فستقوم بها بذكراي) ولم يعد الموت هو الحل لانه فقد علاقته بالموضوع.

في بعض الاحيان اشرب القهوة مع السيد ستينر فهو لا يتناول المشروبات

الكحولية. ويأخذ في الكلام عن والدة آنا ـ لويز فلا اقاطعه، ادعه يهيم في كلامه وافكر أنا بآنا ـ لويز. لقد مات عدونا وماتت كراهيتنا له معه، وقد بقينا مع ذكريات حبنا التي تختلف الواحدة عن الاخرى جدا. ما تزال (الضفادع) تعيش في جنيف، واحاول أن أقلل من ذهابي الى هناك ما امكن. وفي احدى المرات رأيت بيلمونت قرب المحطة، لكننا لم نتكلم، وعدة مرات اجتزت السيد كيبس لكنه لم يكن يراني بسبب نظره الموجه نحو الرصيف. والمرة الوحيدة التي التقيت فيها بدين كان ثملا الى درجة انه لم يعرفني. مرة واحدة فقط ضايقتني فيه السيدة مونتغمري في جنيف عندما صاحت بمرح من عتبة باب احد محلات المجوهرات: «اليس هذا السيد سميث!» ولكنني تظاهرت بعدم سماعها واسرعت في طريقي للقاء زبون ارجنتيني.



غراهام جرين

حفلة القنبلة

دكتور فيشر من جنيف

ثمة حقيقة غير محسوسة عند غراهام غرين، تستثير نوعاً من السرنمة اللاإرادية، حسب الناقد بول ويست. فقد كان يكتب مستخدماً عقله بامتياز، عن المشكلات التي لا يستطيع العقل حلها أبداً، وهي المشكلات التي يخلقها العقل ذاته باستمرار كي يبقى إنسانياً.

تكتسب اللعبة التي تقوم عليها هذه الرواية فكاهتها اللاذعة من صرامة مأساويتها، وتكتمل فصولها المسلّية باكتمال أقدار اللاعبين. أحجار اللعب، تلك الأقدار المختارة بعنف وقسوة ولذة متناهية وحتمية. إنها اللعبة التي تورط فيها الجميع، دون أن يكون لهم حق الانسحاب أو التراجع .. أم أن لدى الدكتور فيشر رأياً آخر!!..

أزمنة
للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ • ص. ب: ٩٥٠٢٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن
ISBN 9957-09-002-X (ردمك)